٢٣٥

HARLEQUIN

روايات احلام

دمعتان ووردة

جيسيكا ستيل

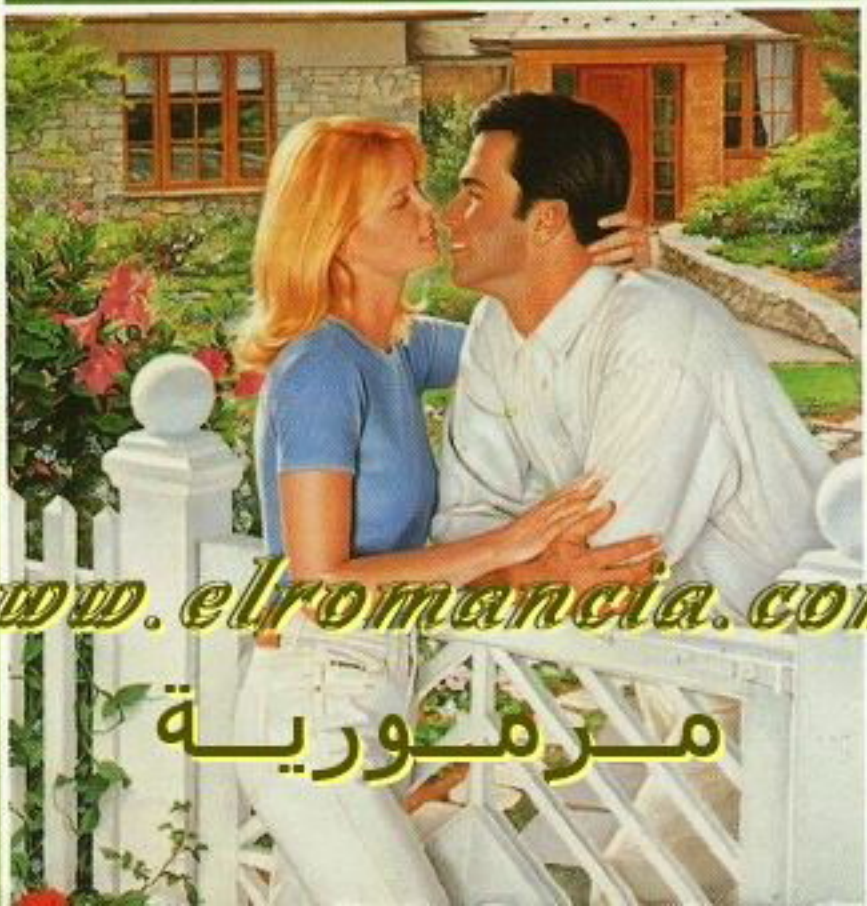

www.elromancia.com

مرمورية

دمعتان ووردة

ـ هل تريدين أن تسددي ما تدينين لي به؟

كانت تعلم أن لا أمل لديها بأن تفي بديونها له. فقالت:

ـ هل وجدتَ لي عملاً؟

ـ لقد وجدت لكِ عملاً... إذا كنت على استعداد للقيام به.

ـ وما هو؟

ـ أن تكوني رفيقتي لمدة سنة!

حدّقت فيه ميرين دهشة: «هل أنتَ جاد؟».

ـ ثقي بأني كذلك.

ـ ولكن.. ولكننا.. لا نكاد نعرف بعضنا!!

www.elromancia.com
مـــر ورة

ISBN 9953-15-060-5

لبنان : ٢٥٠٠ ل.ل.	
سوريا : ٧٥ ل.س.	
الأردن : ١,٥٠ دينار	
الكويت : ٧٥٠ فلس	
الإمارات : ١٠ دراهم	
قطر : ١٠ ريال	
	تونس : ٢ دينار
	عُمان : ١ ريال

روايات أحلام

مجلة قصصية أسبوعية

تصدر عن شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

المدير المسؤول: آمال سابا الهاشم

حقوق النشر والطباعة والتوزيع باللغة العربية

محفوظة لشركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م.

بترخيص خطي من *Harlequin Enterprises II B.V*

كل الحقوق محفوظة، بما فيها نسخ الكتاب بكامله أو جزء منه بأي شكل من الأشكال

تم نشر هذه الطبعة بالاتفاق مع شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل العلامات التجارية استعملت

بترخيص من شركة *Harlequin Enterprises II B.V.*

كل شخصيات هذه الرواية وهمية. أي شبه بين هذه الشخصيات وأشخاص حقيقيين أحياء كانوا أم أمواتاً هو محض صدفة

العنوان الأصلي لهذه الرواية باللغة الإنكليزية:

The Bachelor's Bargain

First published in Great Britain 1999

Harlequin Mills & Boon Limited

© Jessica Steele 1999

Translation © Dar El-Farasha - 2001

ISBN 9953 - 15 - 060 - 5

شركة دار الفراشة للطباعة والنشر والتوزيع ش.م.م. طريق المطار - سنتر زعزور -

ص.ب: ٨٢٥٤/ ١١ هاتف/ فاكس: ٩٦١-١-٤٥٠٩٥٠- بيروت - لبنان

Email: dfarasha@cyberia.net.lb

أعزائي القراء

لأننا عوّدناكم دائماً على أجمل الروايات العاطفية... ولأننا نعرف أن قراءنا لا يرضون بأقل من الأفضل... ولأن هدفنا دوماً المحافظة على واحة حب تخفّف من وطأة الآلام والهموم في عالمنا... لهذا، اخترنا أن تكون هديتنا إلى قرائنا في بداية هذا القرن هي انضمامنا إلى أسرة هارلكوين Harlequin العالمية.

لماذا هذا الاختيار؟

لأن شركة Harlequin هي رائدة الروايات الرومانسية في العالم أجمع، وهي تتعاون مع أفضل الروائيات في هذا المجال، وتصدر شهرياً أكثر من ٧٠ عنواناً جديداً.

ما هي نتيجة هذا الاختيار؟

ستظل روايات أحلام على سابق عهدها من حيث اختيار القصة الشيقة والأسلوب الرفيع واللغة السليمة... والتغيير الذي ستلاحظونه هو في زيادة عدد الروايات شهرياً، وتنوع الموضوعات لتناسب جميع الأذواق، وسيكون لمشاركتكم باختيار المواضيع المفضلة لديكم وبأسماء الروائيات اللاتي أحببتموهن، الدور الأساسي.

بكل إخلاص

أسرة أحلام

جيسيكا ستيل

تقيم جيسيكا ستيل في قرية «ورمسترشير» الجميلة مع زوجها الرائع بيتر. يمتلكان كلبة تدعى «ديزي» تظن أنها آدمية وهما لا يحاولان إقناعها بالعكس؛ فهي تسيطر عليهما سيطرة كاملة. كان بيتر أول من شجّع «جيسيكا» على الكتابة، وبعد أن تعرضت روايتها الأولى للرفض، ظلّ يحثها على المحاولة من جديد. لحسن حظها، استطاعت حتى الآن أن تزور كل البلدان التي تحصل فيها أحداث رواياتها المختلفة وأن تجري فيها أبحاثاً تساعدها على كتابة القصص. تقول جيسيكا إن الفضل في ذلك يعود لبيتر، لأنه لطالما ساعدها وشجّعها.

١ ـ المتشردة

حاولت ميرين أن تنظر إلى الجانب المشرق من الموضوع، أو حتى أن تجد له جانباً مشرقاً. كانت بطبيعتها مرحة، إلا أنها لم تعد تجد ما يبهجها مؤخراً.

ومع ذلك تفاءلت، فالمبلغ الذي سيمسح عن وجه شقيقها الحزن والمعاناة، في حقيبتها. خاب أملها حين اكتشفت أن خاتم أمها الماسي عاد عليها بمبلغ لا يوازي حتى قيمة التأمين عليه. ولكن مبلغ الألفي جنيه الذي اضطرت للقبول به كافٍ لإبعاد وكيل المحكمة عن عتبة بيت روبرت أو بالأحرى عن عتبة بيتها، بما أن روبرت وزوجته وأولادهما الثلاثة انتقلوا للإقامة معها في البيت الذي كانت تقطنه لوحدها منذ شهر ونصف.

لم يختر روبرت إلا اليوم بالذات ليستعير سيارتها ويتنقل بها لإجراء مقابلة عمل. بيد أنها عادت وأقرت لنفسها، بأن سيارتها تحوّلت إلى سيارة العائلة بدلاً أن تكون لها وحدها.

أما حاجة روبرت إلى السيارة فأكبر من حاجتها إليها. وإذا قبل في الوظيفة الجديدة، فستوفر له الشركة سيارة، كما كان الحال في وظيفته السابقة.

وشاءت الصدف أن يطلب منها مديرها دنيس تشابمان الغارق في العمل حتى أذنيه، وفي هذا اليوم بالذات، أن توصل مستندات هامة إلى أحد زبائن الشركة في طريق عودتها إلى المنزل. في الواقع، سبق لها أن قامت بهذه المهمة، وبدا جلياً أن دنيس افترض أنها جاءت بسيارتها إلى

العمل اليوم.

أخذت تسترجع في ذهنها ما حل بشقيقها، والورطة التي وقع فيها. فلو أخبر أحداً، منذ سنة، بأنه أصبح عاطلاً عن العمل، لاستطاع إيجاد حلٍ لمشاكله. لكنه احتفظ بالسر لنفسه، حتى أنه لم يخبر زوجته! فالقلق يعتري كارول لأتفه الأسباب، وقد كانت حاملاً في شهرها الرابع بطفلها الثالث حينذاك.

منذ سنة كان بوسعهم.. انقطعت أنفاسها، حين تذكرت أحزانها التي تحاول أن تتأقلم معها. لسنة خلت كانت أمها على قيد الحياة. لسنة خلت، كانت تعيش مع أمها بسعادة وصفاء في المنزل الذي يملكه والدها. منذ عشرة أشهر، كانت أمها تتمشّى قرب البيت عندما انحرفت سيارة عند منعطف حاد و...

أبعدت ميرين ذكرى الصدمة التي أصابتها والهول الذي شعرت به في الأيام المريرة التي تلت وفاة والدتها، وقدّرت لروبرت موقفه الداعم لها حينذاك. ورأت أنه من واجبها أن تدعم أخاها الآن في وقت محنته، كما دفعها إلى ذلك حبها له.

كان والدهما يقيم في كورنوول. لكن، بما أنه لم يتكبّد عناء حضور جنازة زوجته التي هجرها، لم يتوقعا منه أي مساعدة في هذه الأزمة المالية في الواقع، لقد بعث روبرت له بعدة رسائل طلباً للمساعدة، قبل أن يخبر زوجته كارول بأن مدخراتهما قد نضبت وأنه لم يعد قادراً على دفع أقساط البيت، إنما لم يرده منه أيّ جواب.

كانت ميرين غارقة في أفكارها وهي تمر أمام أحد المنازل الفخمة، عندما اندفع شاب، في العشرين من عمره، من الباب حاملاً بيده حقيبة سفر وكاد يرميها أرضاً.

اعتذر منها دون أن يتوقف، فيما نظراته تقدر جمال وجهها وقوامها:

ـ أنا آسف!.

نسيت هذه الحادثة بعد قليل وتابعت طريقها. يجب أن تعود إلى

البيت. كانت واثقة من أن روبرت لم يخبر كارول أنها ستبيع خاتم أمهما، بعد أن باعت خاتم جدتهما. ولكنه ينتظرها من دون شك. يجب أن تعود إلى البيت، يجب أن تفعل..

توقّف عقلها عن التفكير لما حدث لاحقاً، إذ جرت الأمور بسرعة فائقة كادت لا تصدق معها أن ما حصل لها قد حصل فعلاً. ففيما كانت تنزل عن الرصيف، دُفعت بعنف وقوة من الخلف، لتقع وترتطم بالأرض.

وحين أدركت أنها تتعرض لعملية سلب، راح ثلاثة شبان يدفعونها ويضربونها، بسبب تمسكها بحقيبة يدها. وبعد لحظات، فرّوا مسرعين بعد أن حملوا معهم الحقيبة.

كانت مذهولة ومشدودة الأعصاب. كما صدمها عنف الهجوم الذي تعرضت له، فهي لم تضرب يوماً. جلست في مكانها واجمة للحظات، وأحسّت بالضياع والغثيان، يتنازعها البكاء والغضب في آن معاً.

لم تبكِ، ولم تجد من تصبّ عليه جام غضبها. كيف يمكن أن تتعرض للضرب والسلب في هذه المنطقة الراقية؟ لمَ لا؟ وأيّ منطقة أفضل من هذه المنطقة الغنية بالنسبة للصوص؟ وأيّ مكان أفضل منها للحصول على الغنائم؟

ـ أيتها المسكينة!

الذهول والصدمة الشديدان، منعا ميرين من سماع وقع خطوات تقترب منها مسرعة. نظرت إلى الأعلى فشاهدت الشاب الذي مرّ بها منذ قليل، وهو يحمل حقيبة سفر.

سألها وقد بدا على وجهه الاهتمام: «هل تستطيعين الوقوف؟».

تمكّنت ميرين من الوقوف بفضل مساعدته. ولم تكترث لثيابها الممزقة، لأنها أحست بدوار، فسرّها وجود هذا الشاب لتستند إليه.

قال: «أيتها المسكينة، يا لك من فتاة مسكينة! لا بد أن هؤلاء اللصوص قد أصبحوا على بعد كيلومترات. هيّا، تعالي! فما تحتاجين إليه الآن هو فنجان من الشاي».

قطعا معاً المسافة القصيرة التي تفصلهما عن منزله، ويده تحت إبطها يسندها. ساعدها على صعود الدرج ثم قادها إلى الداخل.

بدأت تستفيق من الصدمة بعد دقائق، واكتشفت أنها تجلس في غرفة استقبال فاخرة، من دون أن تتذكر كيف وصلت إليها.

أخذ رأسها يؤلمها عندما تناهى إليها صوت يقول: «لم تأتِ بمتشرد آخر كعادتك يا بيار!».

كان الصوت جميلاً. ويبدو أن بيار، كائناً من يكون، يقوم بجمع المتشردين.

ـ لا تظلمني يا جيرارد، لقد تعرضت الفتاة المسكينة لعملية سلب لتوها.

انتفضت ميرين عن الأريكة التي كانت جالسة عليها. إنهما يتكلمان عنها! متشردة وضالة! حاولت الوقوف على قدميها بعجز، لكنهما لم تحملاها، فعادت إلى الجلوس.

ـ كما تعرّضت للسلب آخر فتاة جئت بها إلى هنا، على ما أذكر.

ـ لكن الأمر حقيقي هذه المرة. إنه كذلك فعلاً.

ـ ليس لديك الوقت الكافي لمتابعة قضيتك الإنسانية، سوف تتأخر عن موعد الطائرة.

أخذت الأصوات تبتعد، بيار يغمغم بكلمات غير مفهومة، ثم سمعت صوت جيرارد يجيبه: «نعم سأعتني بها، ألا أفعل هذا دائماً؟».

بذلت ميرين جهدها مجدداً، وقد صممت على استجماع قواها. الضالون والمتشردون! سوف أعتني بها! ليذهب إلى الجحيم. لكن رأسها وكتفيها تؤلمها، وكانت على يقين من أن الكدمات ستظهر على جسمها في الغد. شعرت أن رأسها ثقيل، لكنها ستنهض بعد لحظات وتخرج من هنا.

تناهى إلى سمعها صدى أحاديث ثم ساد الصمت، ليتعالى بعد لحظات صوت محرك سيارة. جيد، لقد خرجا. سمعت صوت الباب الخارجي يغلق. وبعد ثوانٍ دخل إلى غرفة الاستقبال رجل، فقدّرت ميرين

أن وقت الرحيل قد حان.

وحين جاهدت للوقوف على قدميها، دنا منها رجل طويل القامة، شعره أسود فاحم، في منتصف الثلاثينات من عمره، ووقف قبالتها. ووجدت نفسها مسمّرة تحت تأثير عينين رماديتين باردتين. أدركت أنه لن يصدّق ما ستقوله. كما أدركت أنه اتخذ هذا الموقف قبل أن تتمكن من فتح فمها.

لهذا، قررت ألاّ تتكبد عناء التفوه بأيّ كلمة. بيد أنها اضطرت إلى الرجوع عن هذا القرار لأنه وقف أمامها مباشرة، فقالت: «هل تسمح بالابتعاد عن طريقي، فأنا راحلة».

اغتاظت عندما رفع حاجبه تهكماً، وعلّق على نبرة صوتها المترفّعة قائلاً: «أرى أنك مختلفة عن الآخرين».

ردت عليه وهي تنتفض من الغيظ: «لست قطعاً «متشردة أو ضالة».

وإن أرادت أن تحرجه بترديد كلماته التي تناهت إلى سمعها، لكان من الأفضل لها أن تلتزم الصمت.

لم يبدُ عليه الإحراج أو الأسف عندما اعتذر منها بنبرة جافة: «اغفري لي. فرعاية الكلاب العرجاء التي يأتي بها شقيقي إلى المنزل باستمرار ترهقني. ففي اندفاعه للخير، يورطني في مشاكله».

مشاكل! كلاب عرجاء! هذا كلام لا يطاق. فانبرت تقول: «أيتها الدودة البائسة، لقد تعرضت للسلب!».

لم يتأثر حين نعتته بالدودة البائسة، بل قال لها متشدقاً غير آبه بثيابها الممزقة ومظهرها المزري: «وقد ناسبك أن تسلبي أمام منزلي».

لقد طفح الكيل منه. هبّت واقفة على قدميها بسرعة وتقدمت خطوة. لكن الدوار باغتها فراحت تبحث عما تستند إليه. مد ذراعيه فاستندت إليه حتى تخلصت من هذا الدوار.

غمغمت وهي تتصنع الوقار: «أنا آسفة».

أنزلت يديها عن ذراعيه وكأنهما أحرقتاها. ولكنه عاد وأمسكها من

كتفيها ودفعها للجلوس مجدداً على الأريكة.

أمرها بالبقاء ساكنة في مكانها، ورغبت في أن تخالف أوامره. لكنها شعرت أن قواها خائرة، فلم تستطع إلاّ أن تطيعه.

خرج من الغرفة ليعود بعد ثوانٍ حاملاً في يده كوباً من العصير وأمرها بأن تشربه. وعندما لاحظ نظراتها الشرسة الثائرة والمشاكسة، ألقى نظرة على شعرها الأحمر الذي تتخلله خصلات شقراء، والذي انسدل كالحرير على كتفيها، ثم تأمّل ملامح وجهها وبشرتها الصافية كالبلور، وأمرها مجدداً: «لعل وجهك شاحب بطبيعته. ولكن..».

أجابت بحدّة وقد تمالكت نفسها، وشعرت بأن الجلوس أفادها: «لا تحاول الاعتراف بخطئك».

ـ ولعلك سليطة اللسان بطبيعتك.

ـ أنا لم أتعرض يوماً للسلب. وعلاوة على ذلك، أتهم بأنني دبّرت عملية السلب لسببٍ ما. لسبب لا يستطيع عقلي المشوش في هذه اللحظة، أن يكتشفه.

ـ اشربي العصير.

رمقته بنظرة حاقدة. لكن بما أن العصير جعلها تشعر بالتحسن، ارتشفت منه جرعة أخرى.

وأقرّت في سرها بأنها بدأت تتمالك نفسها بعد الصدمة والمهانة اللتين تعرضت لهما على يد هؤلاء الشبان البغيضين.

قال لها الرجل الذي يدعى جيرارد: «اشربي ما تبقى من العصير وسأطلب سيارة أجرة، لتقلّك إلى منزلك».

ـ سيارة أجرة؟ من هنا إلى شورتي! أنا لا أملك نقوداً لدفع...

توقّفت عن الكلام وقد اعترتها الصدمة، وراحت تتلفت يمنة ويسرة بحثاً عن حقيبتها، فتذكرت فجأة أنها شاهدتها للمرة الأخيرة في يد أحد الشبان الذين هاجموها.

شهقت في جزع، لأنها كانت تحمل الألفي جنيه في حقيبتها:

«النقود!».

علّق جيرارد بلؤم: «ها قد بدأنا!».

وحدّقت ميرين فيه واجمة، حين أضاف: «هل ستظنين أن تصرفي فظ، إذا ما سألتك عن أيّ نقود تتكلمين؟».

لم تنفر ميرين من الجنس الآخر يوماً، لكنها التقت لتوها شخصاً كرهته للغاية. هي التي لطالما كرهت العنف، شعرت برغبة في لكمه وضربه دون توقّف، ولعل السبب العنف الذي تعرضت له منذ لحظات. لكن تربيتها الحسنة لم تسمح لها بتنفيذ رغبتها. وضعت كوب العصير على طاولة قريبة منها وقالت له بنبرة باردة وحانقة: «أبداً. وهل قابلت في حياتي مخلوقاً كريهاً ومقززاً أكثر منك؟».

ـ قلبي ينزف ألماً، كم سيكلفني هذا الأمر؟

ـ هل خطر لك أن أحداً ما قد يهشم وجهك الجميل، أيها.. النكرة.

ـ دعيني أعيد صياغة سؤالي. ما هو المبلغ الذي سُلب منك؟

كانت ميرين واثقة من أنه لم يصدّق بعد أنها تعرضت للسلب، لكن كبرياءها دفعتها إلى الرد عليه، لتعلمه بأنها ليست «متشردة وضالة». فقالت: «ألفا جنيه».

ـ نقداً؟

لم تجب على سؤاله، فعاد يسألها بارتياب: «هل من عادتك أن تتجولي وأنت تحملين مثل هذا المبلغ؟».

ـ حملته معي كي أسدّد بعض الفواتير!

لماذا تشعر بأن عليها أن تدافع عن نفسها وتبرر تصرفاتها؟ سوف.. ستخرج من هذا المكان.

سألها قبل أن تنزحزح قيد أنملة من مكانها: «ألا تملكين دفتر شيكات؟».

لم تكن تملك ألفي جنيه أو ربع هذا المبلغ في حسابها المصرفي. ولم تكن على استعداد لتخبره بأن الأشخاص الذين يدين لهم روبرت

بالمال، أعلموه وجهاً لوجه أنهم لن يقبلوا بالشيكات. وافترضت ميرين أن شقيقها حاول تأجيل يوم الاستحقاق بواسطة شيكات مؤجلة، تبيّن لاحقاً أنها من دون رصيد.

ـ حسناً، إمّا أنه ليس لديك حساب مصرفي، وإمّا أن الدائنين يعرفون أن شيكاتك بلا رصيد.

أوه، لقد بدأ بالتذاكي!

استطرد وقد غلب عليه الفضول: «من أين جئت بمبلغ الألفي جنيه؟».

ـ هذا ليس من شأنك!

انتفضت بحدة وجزء منها يتساءل مستغرباً عن السبب الذي يدفعها للبقاء. هل ارتطام رأسها بالرصيف القاسي شوّش عقلها؟ هل أثّرت الصدمة في ردة فعلها فجعلتها بطيئة؟ من يسمعها يظنّ أنها تستمتع بتبادل الألفاظ النابية معه.

أجابها بحزم: «بما أن المال الذي في جيبي سينقص ألفي جنيه، أعتقد أن ذلك من شأني!».

حدّقت ميرين فيه حائرة، وسألته: «سينقص المال الذي في جيبك ألفي جنيه؟».

بدا جلياً أنه لا يصدّق حيرتها، ودهشت عندما ردّ عليها بنهكم: «جلّ ما أعرفه هو أني سأتكلّف هذا المبلغ، لأفي بوعدي لشقيقي، إذ وعدته أن أهتم بك».

ـ هل تلمّح إلى أنك ستقرضني هذا المبلغ؟

استفهمت منه لتتحقق من أن ما سمعته صحيح، ومن أن عقلها ليس مشوشاً كما بدأت تظن.

ـ أنا لا ألمح بل أشير إلى ذلك بصراحة ووضوح.

وقبل أن ينهي كلامه، تدخلت ميرين قائلة: «ما الذي يدفعك إلى ذلك؟».

وشعرت بأنها نزلت على عائلة إمّا كريمة جداً وإمّا مخبولة جداً.

فسألها وهو يراقب بنظرات ثاقبة التحسّن الذي بدا على لون بشرتها: «ولِمَ لا أفعل؟. بيار الذي كان يكلفني في الآونة الأخيرة ما يفوق الأربعين جنيهاً في الأسبوع لرعاية قضاياه الخاسرة، على وشك السفر للعمل في الخارج لمدة سنة. وأعتقد أن التبرّع بمبلغ ألفي جنيه لصندوق «المشردين والضالين» الذي يديره، ثمن زهيد للتخلص من هذا العبء».

إنها بغنى عن هذه الإهانات. نهضت ميرين من مكانها، وسرّها أن تجد أن قدميها ثابتتان وأن الدوار أصبح من الماضي. قالت له بكبرياء وهي تخطو بضع خطوات بعيداً عنه:

ـ شكراً على ضيافتك. أما بالنسبة إلى المبلغ الذي عرضته عليّ، فلن آخذ قرشاً واحداً منه أبداً.

تشابكت نظراتها الزرقاء العميقة مع نظراته الرمادية، فقال وهو يتأملها من رأسها حتى أخمص قدميها: «حسناً، لكني لا أعتقد أنك ترغبين في الخروج إلى الشارع وأنت بهذا المظهر».

ثم أضاف وكأنه اتخذ قراراً: «سوف أوصلك بسيارتي إلى منزلك».

لو كان أمام ميرين خيار آخر، لتشبثت به. لكن، لم يكن بحوزتها ثمن تذكرة الحافلة، حالتها يرثى لها، كما لم تكن في وارد الاقتراض منه.

فقالت له: «أنا أقيم في شورتي».

رافقها من دون أن يرفّ له جفن إلى حيث أوقف سيارته الجاغوار السوداء الأنيقة.

ساد الصمت معظم الرحلة، فماذا هناك ليقال؟ لم ترغب في التحدث إليه، كما لم تكن تنوي الإجابة عن أيّ سؤال يطرحه. لكن بدا أنه هو أيضاً لا يرغب في التحدث إليها.

على أيّ حال، كان فكرها مشغولاً بأمور عدة. سيصاب أخوها باليأس والإحباط عندما تخبره أنها حصلت على المبلغ ثم أضاعته. حاولت أن تتذكر ما يمكن أن تبيعه. لديها سيارتها، وهي في حالة جيدة، ولكنها

قديمة، وستكون محظوظة إذا حصلت على خمسمئة جنيه لقاءها. لكن العائلة بحاجة إلى هذه السيارة، فخلال الأسابيع الستة الماضية، أي منذ انتقال شقيقها وأسرته للإقامة معها، زاد ترددها إلى السوبر ماركت، وأصبحت هذه الرحلة مناسبة عائلية في معظم الأحيان.

تمنت ميرين لو أجاب والدها عن رسالة روبرت. كانت تعلم أن مدخراته محدودة، لكنه أرسل لهما نقوداً مرات عدة في الماضي، حين كانت أمها تقع في أزمة مالية وتغالب كبرياءها لتأخذ منه مالاً.

كادت ميرين تتخذ قراراً بكتابة رسالة إلى أبيها هذه الليلة، عندما ركن المدعو جيرارد، سيارته أمام المنزل.

التفت جيرارد نحوها وقال: «أصبح مظهرك أفضل».

فردّت عليه بخفة: «أنا ممثلة بارعة».

- إذاً، لعلي كنت مخطئاً، وقد تعرضت فعلاً لحادثة سلب.

ردت له الصاع صاعين: «لا ترهق نفسك!».

ثم تذكرت أن تصرفها ليس مهذباً فاستطردت قائلة: «أشكرك على اصطحابي إلى البيت».

سمعته يقول وهي تهمّ بالخروج من السيارة: «لا شك أن ما تعرّضت له صعب ومؤلم. هل يعيش معك أحد ليستطيع الاعتناء بك؟ فما زلت، على الأرجح تعانين من الصدمة».

من المرجّح أن تعتني بهم بدلاً من أن يهتموا بها. فردّت عليه وهي تخرج من السيارة: «أنا أقيم مع عائلتي».

لكنه استوقفها، وأخرج محفظته من جيب سترته ثم ناولها بطاقة عمله قائلاً: «اتصلي بي، إذا ما بدلت رأيك بشأن النقود».

أخذت البطاقة منه، لكنها لم تدقق فيها كثيراً إذ كانت واثقة من أنها لن تتصل به. ثم ودّعته، وسمعت سيارته تنطلق مبتعدة قبل أن تجتاز نصف المسافة الفاصلة بين بوابة حديقة منزلها والباب الرئيسي.

تجاهلت ميرين الفوضى المعتادة عندما دخلت المنزل والتقطت ورقة

وجدتها على طاولة المطبخ لتقرأ عليها: «ذهبنا إلى السوبر ماركت».

استحمت ميرين بسرعة وارتدت قميص نوم قطنياً. كان الطقس مشمساً، وتمنت لو أن حياتها مماثلة.

تحسّرت على خسارة خاتم أمها الذي كان من الصعب عليها التخلي عنه، وشعرت بالأسى الشديد لأنها أقدمت على ذلك. لطالما تمسكت أمها بهذا الخاتم، رغم المحن والمصائب التي مرت عليها، وكانت تردد لها دائماً أن الخاتم سيكون لها يوماً.

وماذا فعلت ميرين بالخاتم؟ لم تكتفِ ببيعه، بل أضاعت النقود التي قبضتها ثمناً له. لم تعرف ميرين كيف ستواجه شقيقها لتخبره بما حدث.

انكبّت ميرين على كتابة رسالة وهي تفكر في النزول إلى الطابق السفلي لتعيد ترتيبه وتنظيفه مما خلّفه أبناء شقيقها وراءهم. لقد مضى وقت طويل على آخر رسالة كتبتها لأبيها، ورغم أنها تكره طلب المال منه، لم تجد حلاً آخر، لا سيّما أنه لا يزال رب الأسرة.

خطت رسالة كلّفتها الكثير من الجهد. فبدأتها بفقرة تمهيدية: «كما تعرف، انتقل روبرت وأسرته للإقامة معي في بيتك، نظراً لظروفهم الصعبة».

وتابعت تخبره عن أحفاده الظرفاء، آملة أن تثير اهتمامه، وأنهت رسالتها بالسطور الحاسمة، أي الأصعب، حول ما إذا كان باستطاعته أن يساعدهم على تسديد بعض الفواتير المستحقة دون أن يحمّل نفسه ما لا طاقة له عليه. وأخيراً، ذيلتها باختصار «مع حبي، ميرين».

بعد ذلك، نزلت إلى الطابق السفلي كي ترتّب غرفة الجلوس والمطبخ.

رجحت ميرين أن يكونوا قد تناولوا طعام العشاء. لكنها راحت تقشّر البطاطا، في حال لم يفعلوا. لكن، ماذا ستخبر روبرت؟

أدركت أنه ليس أمامها إلا أن تخبره الحقيقة. وكانت تشعر بالغليان في داخلها لاضطرارها للاعتراف بما حدث، عندما سمعت صوت السيارة

تتوقف عند المدخل.

التفتت حين اندفعت ابنتا شقيقها إلى الداخل، وقالتا: «مرحباً، عمتي ميرين».

تسابقتا إلى الحمام، ولحقت بهما زوجة شقيقها التي بدا عليها الاكتئاب وهي تحمل بين ذراعيها ساميل، ابن السبعة أشهر. وأخيراً دخل روبرت وهو يحمل أكياس المشتريات.

سألتها ميرين وهي تنشّف يديها: «هل أحمل الصغير عنك؟».

كانت ترغب في أن تخبر أخاها بما جرى لتنتهي من الأمر. لكنها شعرت بأنها تودّ تأجيل اللحظة المريعة.

ردّت عليها كارول بابتسامة باهتة: «يجب أن أغيّر له حفاضه».

واختفت لتتركها وحدها مع روبرت، فسألته ميرين: «كيف جرت المقابلة؟».

كيف ستتمكن من إخباره؟

ردّ عليها بوجوم وهو يضع الأغراض التي يحملها على طاولة المطبخ: «لم أحصل على الوظيفة، وماذا عنك هل حصلت عليها؟».

أدركت أنه يتكلم عن النقود: «لا، ليس تماماً، أنا..».

صاح بها: «ميرين! ألم تستطيعي بيع خاتم أمي؟ يا إلهي إنها نهايتي!».

انهار على أحد كراسي المطبخ، وأمسك برأسه بين يديه.

ـ هذا يعني أني سأدخل السجن! وسوف تتركين كارول، أنا..

ـ روبرت! السجن! أنت تتصرف بصورة درامية، وتبالغ في الأمر.

ـ أنت لا تعرفين القضية بأكملها.

ـ ألم تقع في مشاكل من قبل؟ مشاكل مالية؟

رد عليها بمرارة: «حاولي تربية أسرة، وتلبية طلبات زوجة مسرفة».

وفيما كانت تحدق فيه، لاحظت ميرين وللمرة الأولى أن شقيقها الكبير الذي تعول عليه لا يبدو قوياً. وانتبهت للمرة الأولى إلى ضعف

فمه، لكن ذلك لم يقلل من حبها له. لقد ورثا عن والدهما شكل فمه، وبدا فعلاً أنه يشبه والدهما أكثر مما يشبه أمهما الحنون، الطيبة القلب.

ذكرته ميرين: «زوجتك رائعة وأسرتك جميلة».

ولم يعجبها على الإطلاق أن يشير بهذه الطريقة إلى زوجته وأن يحمّلها مسؤولية تقصيره.

فردّ عليها بحدة وتجهم: «وسيطرق بابي مأمورو المحكمة الخبثاء إذا لم أسدد الفواتير المستحقة يوم الاثنين القادم».

ثم أضاف: «ألم تحصلي فعلاً على النقود، يا ميرين؟ لقد وعدتني ببيع الخاتم، وأنت تعرفين ذلك».

أقرّت له: «لقد بعته فعلاً».

لكن قبل أن تستطرد وتخبره كيف سلبت منها النقود، ارتسم على وجهه الارتياح.

وفجأة، علت وجهه ابتسامة عريضة وصاح بها: «أيتها الإرهابية الصغيرة! كنت تتلاعبين بي يا ميرين شبرد! ما هي قيمة المبلغ الذي حصلت عليه؟».

ـ ألفا جنيه. ولكن..

ـ ألفا جنيه، عظيم، لكنهم سلبوك، بالطبع.

عنى روبرت بكلامه الصائغ الذي اشترى الخاتم، لكن ميرين أجفلت من دقة هذه الملاحظة وتطابقها مع الحقيقة.

ـ لكن هذا المبلغ يكفي لتسديد الديون. آواه يا ميرين أشعر وكأن طناً من الهموم أزيح عن كاهلي. للحظة فكرت، ـ أيتها العفريتة الخبيثة ـ في أن أقدم على الانتحار.

خارت قوى ميرين أمام جسامة ما أقدمت عليه. لكنه سألها: «أين المال؟».

سؤال وجيه. شعرت بالدموع تترقرق في عينيها، فأشاحت بوجهها عنه وهي تدرك أنها ستضطر إلى محو الارتياح الهائل البادي على وجهه.

شرعت تقول وهي تلتفت نحوه قليلاً: «لقد حدث...».

أخطأت حين نظرت إليه، فهي تحبه.. إنه شقيقها. وسمعت نفسها تقول: «سأحصل على المبلغ غداً».

أعرب روبرت عن رأيه، قائلاً: «بصراحة، ظننت أن الصائغ، ومن بين كل الناس، يترك في متجره مبلغ ألفي جنيه نقداً. ألا تعتقدين ذلك؟».

وافقته الرأي واكتشفت أنها جارت اعتقاد روبرت، وجعلته يظن أنها ستقصد الصائغ في اليوم التالي، لأنهم يدفعون بواسطة الشيكات وليس نقداً. ويبدو أنهم يقومون بذلك لأسباب أمنية.

وانقطع الحديث بينهما بسبب دخول كوبني وكيتي فقالت ميرين مسرعة:

- يجب أن أذهب إلى البريد لإيداع رسالة.

اعتذرت ثم أخذت طابعاً بريدياً من أحد الجوارير، وصعدت إلى الطابق العلوي لتأتي بالرسالة التي كتبتها لوالدها.

بقيت في غرفتها لدقائق، وراحت تراجع خياراتها، فيما ترددت في ذهنها كلمات أخيها: «السجن» «الانتحار»، «الطلاق» و «تفكك الأسرة».

لا يمكنها أن تدع ذلك يحصل. إذن، ما هي الخيارات المتبقية أمامها؟

ستضع في البريد الرسالة الموجهة إلى أبيها، إلاّ أنها لا تأمل الكثير منها، بما أنه لم يتكبد عناء الرد على رسائل روبرت.

فكّرت في خالها أموس، أكبر أفراد عائلتها سناً، وكأنها تحاول أن تتجنب التفكير في الرجل الذي قال لها قبل أن يفترقا: «اتصلي بي إذا غيّرت رأيك بشأن النقود».

يبعد منزل آموس ياردلي، شقيق أمها، عشر دقائق عن منزلها. كان أحب الأشخاص إلى قلبها، ولطالما اعتبرته بمثابة أب لها أكثر من والدها الحقيقي، حتى قبل أن ينفصل والداها.

خالي آموس الحبيب.

سألها عندما توفيت والدتها: «هل لديك ما يكفي من المال؟».

وصممت ميرين حينها على ألاّ يعرف أبداً أن جنازة أمها أفلستها تقريباً، إذ عملت على أن تحصل والدتها على أفضل جنازة.

طمأنته قائلة: «طبعاً، نعم».

كانت تعرف أن كوخه الرث يتداعى من حوله، وأنه أنقر منهم.

احتاجت ميرين لخلوة كي تفكّر في حل، لذلك خرجت من المنزل لتودع رسالتها، رغم اقتناعها بعدم جدواها. وفيما كانت تخضع لما هو حتمي وتبحث عن هاتف عمومي، إذ لا يمكنها أن تجري مثل هذه المخابرة من منزلها، تذكرت أنها لا تملك كلفة المخابرة التي تريد إجراءها.

لم ترغب في الاتصال به، البتة.. جلّ ما أرادته هو العودة إلى المنزل، وإلى سريرها، وودّت لو تخفي رأسها تحت الأغطية، تبقى هناك إلى الأبد.

لكنها ليست الوحيدة المعنية لتفكّر في نفسها فقط. ولما ذكّرت نفسها بأنها مسؤولة عن شقيقٍ واقع في ورطة، وزوجة شقيق مكتئبة، وفتاتين صغيرتين، وطفل رضيع، عثرت على هاتف عمومي.

استجمعت شجاعتها وطلبت من عاملة الهاتف تسجيل كلفة المكالمة على حساب الرقم المطلوب. أعطتها اسمها، وهي تعلم أنه لن يعني شيئاً لجيرارد مونتغمري، وانتظرت.

ساد الصمت وتمنت ميرين التي أحست بالحرارة تسري في جسمها، لو أنها لم تفعل ذلك. بدأت تقتنع بأن جيرارد مونتغمري وإن لم يرفض الرد على مخابرتها، لا يتوقع أن تأخذ عرضه على محمل الجد.

وحين سمعته ميرين يجيب، ابتلعت كبرياءها، فهي لا ترغب في أخذ ماله، لكنها بحاجة إلى هذا المبلغ. لهذا، ردّت بعجز وتكلّف: «آلو، جيـ.. سيد مونتغمري. أنا ميرين شبرد».

يا للخيبة! لقد أطلعته عاملة الهاتف للتو على هوية المتصل.

رد عليها متسائلاً: «ميرين شبرد؟».

بدا جلياً أنّه لا يميّز بينها وبين حواء، لكنه ردّ على المخابرة لأن المتصلة امرأة أو ليتلاعب معها.

امتعضت من هذه الفكرة، فأعلمته بإيجاز: «كما في «متشردين وضالين»».

ساد الصمت للحظة، وكأنه يحاول أن يتذكّر وجهاً من بين كل الوجوه، ثم سمعته يقول: «هذه الميرين شبرد!».

ردّ عليها ببرودة وأحست للمرة الثانية بأنها تكرهه وتودّ الانتقام منه. لكنه ينتظر، ولم تستطع إنكار سبب اتصالها، فتلعثمت وهي تقول: «هل كنت.. أعـ... هل كنت جاداً.. بالنسبة إلى النقود؟».

ـ ألفا جنيه، كما ذكرت.

ـ نعم.

ـ تعالي غداً إلى مكتبي.

شعرت بأن يديها لزجتان وشدّت على سماعة الهاتف ثم ابتلعت بريقها وسألت: «في أيّ وقت؟».

أجابها: «الحادية عشرة صباحاً».

وأدركت ميرين أنّ عليها أن تطلب إجازة من العمل، وأنها ليست في موقع يسمح لها بالجدل. على أيّ حال، لن ينفعها ذلك، لأن الخط قد انقطع.

تركت ميرين الهاتف، تتنازعها عواطفها المتضاربة.. لم تكن راضية عما فعلته، لكن يبدو من لهجة جيرارد مونتغمري أنه مستعد لمساعدتها.

لم يعجبها، واستاءت من رده: «هذه الميرين شبرد».

كما أزعجتها لهجة الأمر: «تعالي إلى مكتبي غداً».

فضلاً عن أنه اكتفى بتحديد الساعة الحادية عشرة قبل أن يقفل الخط.

لا، لم يعجبها سيد جيرارد مونتغمري، لكن لا يمكنها أن تفرض شروطها في مثل هذه الظروف، فهو أملها الوحيد.

***

٢ ـ بصيص أمل

تلك الليلة انتاب ميرين كابوس فظيع، فاستيقظت مذعورة وهي تلهث وتصيح. تملّكها شعور بالتوتر والإعياء، فأضاءت نور الغرفة وحاولت أن تهدأ. فكرت في أنه ليس من المستغرب، في وضعها النفسي الحالي، أن تحلم بأنها تتعرض للضرب العنيف والمطاردة حتى حافة مرتفع صخري، لتهوي بعد ذلك، وتهوي، وتهوي..

لم تعرف كم من الوقت مضى عليها وهي تصرخ، لكنها افترضت أنها لم تصرخ طويلاً جداً، أو بصوت مرتفع جداً، لأنها لم تزعج أحداً من الموجودين في البيت. ولكن لم يعد من السهل أن يسمعها أحد منذ أن نقلت غرفتها إلى العلية. ولم يهرع إليها أحد لينقذها من شياطينها الليلة.

فقدت رغبتها في النوم، وودّت لو تنزل إلى المطبخ لتحضّر شراباً ساخناً، لكنها خشيت أن توقظ ابن أخيها الرضيع. فساويل طفل مضطرب منذ يوم ولادته، وقد يستمر بالبكاء لساعات!

لم يكن مستغرباً أن يخطر في بالها جيرارد مونتغمري. هل طلبت منه حقاً الألفي جنيه؟ هل وافق فعلاً على إقراضها هذا المبلغ؟ وإذا فعل، فهل من وسيلة لرد هذا المبلغ؟

منعها السؤال الأخير من النوم لساعة، لكنها عادت وغفت من شدة الإرهاق دون أن تجد جواباً له. وعندما استيقظت ثانية، تبيّن لها أن النهار قد طلع وأن الرضيع يبكي.

نهضت ميرين من سريرها ونزلت لتعتني بابن أخيها الصغير. لا تتذكر

أنها تلقّت ضربات على كتفيها، لكنها شعرت بأنهما تؤلمانها، وظهرت كدمات على كافة أنحاء جسمها.

وبعد حين، نزل شقيقها وهو يرتدي ثياب النوم، وبدا جلياً أنه يريد التحدّث إليها قبل أن يستيقظ الآخرون.

قال لها: «كنت أفكر يا ميرين في أنني لو قابلتك عند الصائغ ظهراً، لأخذت النقود وسددت..».

قاطعته بحدة: «لقد طلبت إجازة من العمل اليوم، وسأعود عند الساعة الواحدة».

بعد أن اطمأن إلى أنه سيحصل على المال لم يضيّع وقته، فانتقل إلى موضوع آخر: «هل أستطيع أن آخذ سيارتك اليوم؟».

اضطرت ميرين إلى رفض طلبه لأنها كانت تشعر بقلق شديد من حمل النقود بعد ما تعرضت له بالأمس.

ردّت عليه بحزم رغم إلحاحه: «سأعطيك السيارة بعد الساعة الواحدة ظهراً».

وما إن ناولت أخاها ابنه الصغير، حتى عادت إلى غرفتها، حيث استحمت، ولازمتها لحين خروج روبرت الذي اصطحب كوبني وكيتي إلى المدرسة سيراً على الأقدام. وكانت كارول مشغولة بإطعام ساموبل.

تأملت ميرين ملابسها، وهي تتذكر كيف بدت في الأمس. لم تنسَ ما قاله جيرارد مونتغمري: «لا أعتقد أنك ترغبين في الخروج إلى الشارع وأنت بهذه الهيئة».

أرادت أن تبدو أنيقة عندما ستقابله ثانية، وافترضت بعد تفكير أن السبب الذي يدفعها إلى ذلك هو الكبرياء.

اجتازت ميرين الباب الدوار لمؤسسة روكسفورد ويرينغ.. كانت قد ارتدت بذلة من اللون الأزرق الغامق الذي يبرز لون عينيها الأزرق. وخطر في بالها فجأة، أنها قد لا تقابل جيرارد مونتغمري! لقد طلب منها أن تأتي إلى مكتبه، لكنه لم يقل لها حرفياً إنه سيقابلها.

اقتربت من موظفة الاستقبال وكادت تسألها عمّا إذا ترك لها السيد مونتغمري طرداً صغيراً. لكنها أحجمت عن ذلك بسرعة، وحاولت أن تتمالك نفسها. فلا شك أنه يريد أن يعرف كيف سيسترد ماله، لكن حبذا لو تعرف هي نفسها ذلك!

ابتسمت لموظفة الاستقبال الأنيقة وقالت: «أنا ميرين شبرد. لدي موعد مع السيد جيرارد مونتغمري».

تبيّن لها أنه يتوقع وصولها! ركبت ميرين المصعد وهي تشعر بالاضطراب في أحشائها، وشرعت تدعو بها ألا يكون الأمر مجرد خدعة. لا، لا، كان عرضه جدياً. كما أنها لن تحتمل العودة إلى المنزل ومواجهة روبرت إذا لم تحصل على النقود.

قرعت الباب الذي أرشدتها إليه موظفة الاستقبال وتوقّعت أن تسمع صوت سكرتيرته تدعوها للدخول، لكن جيرارد مونتغمري فتح الباب بنفسه. وقف لحظة يتأملها من دون أن يدعوها للدخول، وفيما راحت نظراته تجول على شعرها المنسدل على كتفيها، والمرتّب مقارنة مع حاله بالأمس، استغلت ميرين الفرصة لتمعن النظر فيه.

بدا طويلاً كما في الأمس، في بذلة العمل الأنيقة وربطة العنق والقميص المُنشى، لكنه أيضاً أكثر تسلطاً.

كادت تفقد أعصابها فجأة بعد أن قال متشدقاً: «لقد هذّبت مظهرك جيداً».

فردّت عليه بالنبرة ذاتها وهي تأمل أنه يمازحها: «لقد بذلت بعض الجهد. وأنت تبدو متأنقاً كوتر عود مشدود».

ـ تفضلي بالدخول!

دخلت ميرين إلى مكتبه ولاحظت أن الباب الذي يؤدي إلى مكتب سكرتيرته مغلق، مما سرّها للغاية، إذ بدا لها أنه يتناول هذه المسألة بتكتم.

سألها وهو يدعوها للجلوس على كرسي ويجلس بدوره خلف مكتبه:

ـ كيف حالك اليوم؟ كنت مضطربة للغاية في الأمس، على ما أذكر.

أجابته: «ستزول الكدمات خلال أيام. أعتذر لأنّني جعلتك تدفع كلفة المخابرة الهاتفية ليلة البارحة، فلم أكن أحمل معي نقود معدنية».

ـ لماذا لم تتصلي من منزلك؟

ردّت عليه وقد أدركت أنه سريع البديهة: «أنا.. لم أشأ.. لا أريد أن تعرف عائلتي أنّني تعرّضت للسلب».

ـ أو أن السارقين سلبوا منك الألفي جنيه التي كانت بحوزتك.

لم تجبه فتابع أسئلته: «من أين حصلت على هذا المبلغ؟».

ردت بخشونة: «حصلت عليه بطريقة شريفة..».

لكنها أدركت أن لديه الحق في أن يعرف فاستطردت بالنبرة ذاتها:

ـ لقد بعت قطعة مجوهرات؟

سألها بسرعة: «هل هي ملك لك لتبيعيها؟».

استاءت من سؤاله وأرادت أن ترد عليه بحدة، لكنها تنبّهت إلى أنها لا تستطيع المخاطرة بإغضابه. فهي تحتاج إلى مساعدته، وافترضت على مضض أن سؤاله وجيه فهو لا يعرف عنها شيئاً، فقالت: «أنا.. كان الخاتم لأمي».

ـ وهل تحتاج أمك إلى الألفي جنيه؟

ردّت عليه وقد تصلّبت قسمات وجهها: «لقد توفيت أمي منذ عشرة شهور».

بدا الغضب عليه فجأة وهو يتابع طرح الأسئلة وكأنه استخلص الأسباب التي تكمن وراء رغبتها في إخفاء الأمر عن عائلتها: «إذاً، أنت من يحتاج إلى المال، لماذا؟ هل أنت حامل؟».

أغضبها هذا التلميح فانتفضت وردّت عليه بحدة: «لا، أنا لست حامل! وهذا الأمر بعيد الاحتمال».

ـ أنت لم...؟

ـ لا، لم أفعل قطّ.

سألها بتهذيب بعد أن زال غضبه: «أبداً؟».

ردّت عليه بجفاء وهي تتساءل عما إذا كانت فعلاً تتبادل هذه الأحاديث معه: «أنا حرّة في حياتي الشخصية».

ثم غيرت مجرى الحديث، فقالت: «قلت لك إني أحتاج إلى هذا المال لأسدد بعض الفواتير».

أخذت نفساً عميقاً لتهدىء أعصابها، وشعرت أن كبرياءها تنهار وهي تسأله: «هل أمّنت لي النقود؟».

كان رده عملياً، إذ فتح أحد الأدراج وأخرج مغلفاً عادياً ثم وضعه على طرف الطاولة قربها. وقال وكأنه يعرف أنها لا ترغب بأخذ شيك:

ـ نقداً.

ردت من دون أن تلمس المغلف: «شكراً. هل تريد مني أن أوقع على أيّ سندات تثبت أني أخذت منك هذا المبلغ؟».

ـ لا، هذا ليس ضرورياً.

تمتمت: «أوه.. لكن ماذا عن تسديده؟».

حدّق فيها وبدا وكأنه على وشك أن يقول شيئاً، لكنه عدل عن ذلك ودعاها لإكمال حديثها: «تابعي».

ـ حسناً.. أنا.. في الواقع، اعتقدت أنك فكرت، كما فعلت أنا الليلة الماضية، بأنه سيمضي بعض الوقت قبل أن أتمكّن من أن أعيد لك هذا المبلغ.

ردّ عليها متشدقاً: «أقدّر لك أمانتك، مع أنني لا أذكر أنّي طلبت منك إعادة المبلغ».

صاحت به قائلة: «لا تقل لي إنك تقرضني، تعطيني النقود لطيبة قلبك!».

استفهم منها ببرودة: «وهل تلمّحين إلى أنّ قلبي لئيم وحقود؟».

لم تكن تلمّح إلى ذلك. كيف لها أن تنعته بهذا، وهو الذي قدم لها هذه الخدمة العظيمة؟ فردّت بسرعة: «لا شك أنك تريد شيئاً ما مقابل هذه

الخدمة؟».

فبالرغم من صغر سنها وجهلها للكثير من أمور الحياة، إلاّ أنها تعلم أن لا أحد يقدّم مثل هذا المبلغ الكبير من دون مقابل.

تأملها جيرارد بصمت للحظات طويلة قبل أن يقول برقة بالغة: «هل أنت مستعدة لأن تبيعي.. خدماتك؟».

انتابها إحساس فظيع بأنه يلهو بها ويحاول جرح كرامتها، وشعرت بأنها تكرهه، لهذا، فقالت له بفظاظة: «أنا سكرتيرة ممتازة».

استفهم منها مدهوشاً: «هل تعملين؟».

فأجابت بجفاء: «لقد اتصلت بمديري هذا الصباح وطلبت منه إجازة لليوم، على أن يحسبها من إجازتي السنوية. أستطيع العمل في المساء وفي العطل الأسبوعية إذا كنت بحاجة إلى بعض أعمال السكرتاريا...».

رفض عرضها قائلاً: «لديّ سكرتيرة تتقن عملها جيداً».

نضبت أفكار ميرين فقالت وهي تتذكر منزله النظيف: «وأعتقد أن لديك خدماً ممتازين أيضاً».

حدّق فيها وكأنها مخلوقة غريبة من عالم آخر: «هل تقومين بأعمال التنظيف؟».

ـ أنا مستعدة للقيام بأي عمل قانوني.

ـ فهمت.

واستطرد بعد تفكير قصير: «تعالي لمقابلتي غداً، وسأطلعك على طلباتي حينها.. لكن لا تجلبي معك مربول المطبخ».

عندما نهضت ميرين عن الكرسي وهمّت بالمغادرة، سمعته يقول لها: «ألم تنسي شيئاً؟».

التفتت ولاحظت أنها نسيت مغلف النقود، فتأوهت في سرها.

إنه يكرر فعلته! إن هذا الرجل قادر، ولسبب ما، على إثارة اضطرابها، وجعلها تتأرجح بين الرغبة الشديدة في ضربه، والشعور بالامتنان والرغبة في الابتسام له. فعادت أدراجها نحو المكتب والتقطت

المغلف ثم قالت له بهدوء، وهي تحاول الحفاظ على وقارها: «شكراً».

ردّ عليها قائلاً: «انتظري، فلن تكوني بأمان إذا ما تركتك تذهبين وحدك. سأطلب من أحد السائقين أن يوصلك إلى المنزل».

مسك الختام! فكرت في ذلك، وشعرت بمتعة شديدة لأنها تملك جواباً جاهزاً: «في الواقع، جئت اليوم بسيارتي».

لكن متعتها لم تدم طويلاً إذ قال لها بصورة قاطعة: «سأطلب من أحد رجال الأمن مرافقتك حتى السيارة».

لم تستطع ميرين أن تتذكر ما إذا ودّعت جيرارد، لكنها سرّت لأنها تسير إلى جانب رجل أمن صلب وقوي.

وفيما راحت السيارة تقترب من البيت، انتابت ميرين رغبة قوية في عدم إعطاء النقود لشقيقها. كان هذا الشعور سخيفاً، فالهدف الرئيسي من توجهها إلى مبنى شركة روكسفورد ويرينغ هو إحضار النقود لروبرت. لكن ترددها بدا فجأة مبرراً، فما إن تسلّم هذا المبلغ لروبرت ليسدد ديونه المستحقة منذ وقت طويل، حتى تصبح مدينة لجيرارد مونتغمري.

خرج روبرت مسرعاً من البيت حالما رأى سيارتها. وعندما لاحظت ميرين علامات التوتر على وجهه لم تتردد في إعطائه النقود، فارتسمت البهجة على محيّاه وقال لها: «لن أنسى لك هذا المعروف أبداً».

لكنها أدركت وهي تناوله المغلف ومفاتيح سيارتها أن هذا الجميل سيطويه النسيان سريعاً.

دخلت إلى المنزل، فوجدت أن كارول قد خرجت لتنزه طفلها الصغير، والمنزل في حالة برثى لها من الفوضى. غيّرت ميرين ثيابها وارتدت سروالاً وقميصاً من القطن، وشرعت تنظف سجادة غرفة الجلوس لكن الأفكار المربكة عادت بها إلى جيرارد مونتغمري.

افترضت، وعلى ضوء ما حدث، أن التفكير فيه غالباً أمر طبيعي. أظهر لها لتوه، طيبة وكرم شديدين، ومن البديهي أن تسدد هذا الدين، بوسيلة أو بأخرى. كما أنها لن ترضى إلاّ أن ترد له ماله لأن كبرياءها يحتّم

عليها ذلك.

قال لها: «تعالي لمقابلتي غداً».

لكنه لم يحدد المكان أو الزمان. وبما أن يوم الغد هو يوم السبت، فهذا يعني أنها يجب أن تقابله في منزله كي يطلعها على قراره بشأن كيفية تسديد الدين.

نظفت ميرين المنزل ورتبته، ثم أعدّت قالباً من الحلوى لخالها آموس. فقد اعتادت أمها أن تحضر قالباً من الحلوى لأخيها كل يوم سبت وتحمله إليه، وكانت ميرين مسرورة لقيامها بهذه المهمة.

جاء برتي ارمسترونج حوالى الساعة السابعة مساءً لزيارتها. كان في مثل سن ميرين ولطالما ربطت بينهما علاقة صداقة وطيدة. وسألها:

ـ سأذهب لاحقاً إلى نادي «البوول».. هل ترغبين بمرافقتي؟

لم تكن ميرين تميل بشدة إلى الذهاب. وبما أنها أخبرت جيرارد مونتغمري أن بإمكانها العمل في العطلات الأسبوعية ومساءً، قررت أن تقبل دعوة برتي. فالله وحده يعرف، بعد أن تقابل هذا الرجل، في الغد، متى سيتسنى لها الوقت للخروج مساءً.

سألته: «عند الساعة التاسعة؟».

فرد عليها: «سوف أتصل بك».

عادت ميرين إلى البيت، بعد سهرتها مع بيرتي، عند الساعة الحادية عشرة ليلاً، لتجد المنزل غارقاً في الظلام، والجميع قد خلد إلى النوم. فكرت قليلاً في الساعات الهادئة التي أمضتها بصحبة بيرتي ارمسترونغ والتي جعلتها تشعر بالاسترخاء. لكنها أدركت لاحقاً، بعد أن انتابها كابوس مخيف مماثل لكابوس الليلة الماضية، أن الأزمة النفسية التي نشأت من جرّاء وقوعها ضحية اعتداء في الشارع لم تنتهِ بمجرد تمالكها لنفسها ونفضها الغبار عنها.

استسلمت أخيراً للنوم، لتستيقظ باكراً على صراخ الصغير الذي بدا وكأنه يمتحن قوة رئتيه. شعرت بالدهشة حين وجدت أنها الوحيدة التي

سمعت صراخه.

لكن، بما أن كارول تقوم برعاية رضيعها وتلبية حاجاته طوال اليوم، شعرت ميرين أنها لا تلومها إذا ما غطت رأسها آملة أن يهتم شخص آخر بأمره. ولهذا، نهضت من فراشها لتقوم برعايته.

لم تتمكن ميرين من تحديد الوقت المناسب لمقابلة جيرارد مونتغمري، وكان من عادتها أن تمضي بعض الوقت مع خالها آموس صباح يوم سبت. لذلك قررت أن تترك أمر زيارتها لجيرارد مونتغمري إلى ما بعد الظهر. فهذا الأخير يعرف عنوانها، ورقم هاتفها موجود في الدليل، فإذا ملّ من الانتظار يمكنه أن يتصل ويترك لها رسالة ما.

سألت خالها، وهي تملأ له طبقه بالحلوى للمرة الثانية: «كيف كان أسبوعك؟».

رد عليها: «واجهت بعض المصاعب مع آخر مبتكراتي. وكيف حالك أنت؟».

لا يمكنها أن تطلع هذا الرجل العزيز على الأهوال التي مرت بها يوم الخميس الماضي، أو على زيارتها لجيرارد مونتغمري في الأمس. لأن خالها آموس سيشمر عن ساعديه ويستعد للعراك مع أيّ شخص يجرؤ على الاعتداء عليها، وسوف يحنق كثيراً لأنه لا يملك القدرة على مساعدتها مادياً.

ابتسمت له وأجابت: «ممتاز، هل أحضّر لك بعض القهوة؟».

ـ لكن المطبخ في حالة مزرية.

لم تعرف مطبخه إلا على هذه الحالة. وبعد أن قدّمت له القهوة، عادت إلى المطبخ لتنظفه وترتبه، كما كانت تفعل أمها من قبلها. بعد ذلك، دعته وهي تعلم تماماً أنه لن يقبل دعوتها: «هلاّ أتيت لتناول طعام الغداء معنا؟».

قال لها مبتسماً: «بعد ما حدث في المرة الأخيرة؟ وهل تحسن سلوكهم اليوم؟».

كان خالها آموس متزوجاً في الماضي، لكن زوجته هجرته بعد أن طفح كيلها منه على حدّ تعبيره. لم يرزق بأولاد من هذا الزواج، وانحصرت خبرته في هذا المجال بها وبشقيقها روبرت اللّذين كانا مختلفين تماماً عن ابنتي روبرت كويني وكيتي، الكثيرتي الحركة والصراخ. فقد أزعجتاه خلال تناول طعام الغداء في أحد الأيام، حين قرر أن يتعرّف إلى أولاد ابن أخته. واختار ساميل ذاك اليوم بالتحديد لإثبات قدرته على الصراخ بشكل يصمّ الآذان.

ردت ميرين بدبلوماسية: «أظن أن وضع البنتين النفسي قد استقر في مدرستهما الجديدة».

وعندما تركته، شعرت ميرين أن معنوياتها أعلى مما كانت عليه عند وصولها. لكن القلق عاد يعتريها في طريق عودتها إلى منزلها، فهنالك أمر لا يمكنها تأجيله أو إلغاؤه. عليها أن تذهب لمقابلة جيرارد مونتغمري بعد ظهر هذا اليوم.

ارتدت ميرين تنورة وسترة من الكتان بلون الكريم، واكتفت بالماكياج الذي كانت تضعه، ثم تمعّنت في شعرها لتتأكد من حسن تسريحه. وأخيراً، استطاعت أن تخرج من المنزل متجنّبة الأصابع الصغيرة المستكشفة والدبقة.

ركنت سيارتها قرب منزل جيرارد مونتغمري وانتابها شعور بالتوتر والخوف عندما اجتازت المكان الذي تعرّضت فيه للاعتداء منذ يومين. شدّت من عزيمتها وتابعت طريقها، وسرّت عندما وصلت إلى الباب الأمامي لمنزل جيرارد مونتغمري. قرعت الجرس وانتظرت.

فتح جيرارد مونتغمري الباب بنفسه، ولم تعرف لما تسارعت نبضات قلبها حين رأته يقف أمامها. لعل السبب الدهشة التي ارتسمت على محياه حين شاهدها أمام منزله. أتراه نسي أنها ستأتي لمقابلته اليوم؟

فكّرت في أن تذكره فقالت بهدوء: «لقد طلبت مني أن أحضر لرؤيتك اليوم».

ودهشت حين رأت خلفه امرأتين تحمل كل منهما حقيبة يد، وتهمّان على ما يبدو بالخروج. بدت إحداهما في الستين من عمرها، والأخرى في مقتبل الثلاثين.

شرعت ميرين تعتذر فيما وقفت الامرأتان خلفه: «جئت في وقت غير مناسب».

فرد عليها جيرارد برقة: «لا، أبداً».

وراح ينقل نظراته بينها وبين المرأتين الأخريين اللتين وافقتا على كلامه. ساد الصمت للحظة، ونظر بعدها إلى ميرين وقد علت محياه ابتسامة عريضة وقال: «إنها مفاجأة سارة».

وأكمل، فيما راحت تحدّق فيه مستغربة كلمة سارة: «لم أكن أتوقع مجيئك قبل المساء».

هل ظن أنها ستأتي إلى منزله في المساء لتناقش مسألة المال الذي تدين له به؟ حسناً، إنها لا تريد أن تناقش هذا الموضوع أمام الآخرين.

تراجعت ميرين خطوة إلى الوراء، لكن قبل أن تتمكن من أن تقول له إنها ستعود لاحقاً، وإنها ستتصل به هاتفياً قبل ذلك، أمسك بذراعها برشاقة وجرّها إلى الباب الأمامي.

قال وهو يبتسم: «لا تكوني خجولة».

خجولة! استغربت كلامه، لكنه أضاف: «أمي وأختي على وشك المغادرة. لكن هيا ألقي عليهما التحية قبل أن تذهبا».

وقبل أن تتمكّن ميرين من القيام بأي رد فعل، وجدت نفسها في الرواق، وباب المنزل الأمامي قد أغلق فيما شرع يعرفهن على بعضهن البعض.

قالت أمه ببشاشة: «يسرني جداً التعرف إليك يا ميرين».

ولاحظت ميرين أن سلوكها غير مبرر كسلوك ابنها.

سألتها أخته فيدا بفضول وهي تبتسم: «هل تقيمين في لندن؟».

ـ بالطبع.

استعلمت السيدة مونتغمري بلطف: «هل تتقابلان، أنت وجيرارد، كثيراً؟».

عندها، تدخل جيرارد محذّراً: «أمي، لقد التقينا مرتين، منذ يومين والبارحة، لكن ما كنت لأخبرك أي شيء عن ميرين لو ظننت أنك ستخضعينها للامتحان».

علا الاحمرار وجه ميرين، إذ بدا جلياً أن جيرارد أخبر أمه وأخته أنه أقرضها بعض المال. كما بدا السرور المفرط على أمه لما قاله لها.

اعتذرت السيدة مونتغمري بصدق: «أنا آسفة. لقد أحرجتك وجعلت وجهك يحمر خجلاً».

ثم قبّلت خدها وأضافت على عجلة: «سوف نذهب قبل أن أحرجك أكثر».

قالت فيدا مبتسمة: «وداعاً يا ميرين».

دعته أمه: «يجب أن تأتي إلى هيلمونت في أقرب فرصة ممكنة».

كانت ميرين واقفة بينهما، وبدا لها أن تصرفها سيكون نظاً فيما لو أعربت عن رأيها في تصرفات أفراد عائلة مونتغمري التي وجدتها غريبة نوعاً ما. ودّعت الأم وابنتها جيرارد وغادرتا منزله.

أغلق جيرارد الباب خلفهما وقاد ميرين إلى غرفة الجلوس التي لم تكد تلاحظها يوم الخميس السابق. كان سقف الغرفة مرتفعاً، أثاثها أنيق، وقد زيّنت جدرانها لوحات زيتية عدة.

قال لها وهو يدعوها للجلوس: «أنا آسف لذلك».

اختارت الجلوس على أحد الكراسي الهزازة، وفعل جيرارد مثلها.

ردت ميرين على ما اعتقدت أنه اعتذار لمناقشة هذا الموضوع مع أمه وشقيقته: «أعرف أنني لست في وضع يسمح لي بالاعتراض، لكنني كنت أفضّل ألاّ تخبر عائلتك عن القرض».

ارتجفت قليلاً عندما أنكر قيامه بشيء كهذا وأوضح لها بحزم: «إن مسألة النقود مسألة خاصة تتعلق بي وبك فقط».

حدّقت فيه ميرين وسألته: «ألم تذكر هذا الموضوع بأيّ شكل من الأشكال؟».

ولما هزّ رأسه نافياً، وهو ينظر إليها بنظرات ثابتة، شعرت بالحيرة فسألته: «إذاً، لِمَ قلت لها ما كنت لأخبرك أيّ شيء عن ميرين؟ لا بد أنك أخبرتهما شيئاً عن..».

ثم أخفضت صوتها قليلاً، وهي تضيف: «هل يعني ذلك، أنك أطلعتهما على حادثة السلب التي تعرضت لها؟ رغم أن ذلك لا يفسّر...».

أكمل عنها الحديث: «لا يفسّر لما أمي وأختي ستخضعانك للامتحان».

وتابع بلطف: «أخشى يا ميرين أن زيارتك اليوم، جاءت في الوقت المناسب. كما أن احمرار وجهك كان مناسباً للغاية».

استفهمت منه بلطف وقد شعرت بأن الغموض الذي يلف الموضوع لم ينقشع بل ازداد، فقالت: «هل يتصرّف كل أفراد أسرتك بغرابة هكذا؟».

ردّ عليها متمتماً: «والدي تمكّن من البقاء خارج هذا الإطار وأتمنى أن يسمحوا لي بذلك أيضاً».

ـ لقد قلت إنك ستوضح لي الأمر.

نظر إليها وابتسم. ابتسامة اعتبرتها لطيفة وانتظرت حتى قال: «لا أقوم بهذه المهمة على أحسن وجه، أليس كذلك؟ الحقيقة أن أمي وأختي دأبتا منذ سنوات على محاولة تزويجي كي أستقر».

استفهمت ميرين وهي تشعر بالرضا: «ألست متزوجاً؟».

استغربت هذ الشعور، وبدا لها مخيفاً. لا شك أن حادثة السلب التي تعرضت لها يوم الخميس الماضي قد أثّرت على عقلها.

رد عليها قائلاً: «لم أشعر بالحاجة إلى ذلك البتة، كما أني أستمتع بحياتي كما هي».

ـ ألا تشعر أبداً، بأنك تفوّت على نفسك شيئاً ما؟

لم تسمع منه جواباً. وأدركت أن أسلوب حياته ومنزله ومركزه في مجلس إدارة شركة روكسفورد ويرينغ، ومظهره الوسيم، ورجولته الجلية، تحمل الرد، ولا حاجة به لتكبّد عناء الإجابة. فقالت مسلّمة:

ـ كان سؤالاً أحمق، أعتقد أن أمك لا تعرف وجهة نظرك حول...

ـ إنها تعرف. لقد أخبرتها بذلك مراراً، ولكن هذا لم يردها عن البحث عن عروس لي بين بنات صديقاتها أو بنات أقربائهن، أو صديقات بناتهن وبنات أقاربهن. إنه لأمر مريع!

ـ لا بد أنك وجدت واحدة أو اثنتين مناسبتين.

ـ مناسبتان لأي غرض؟ لو استسلمت ودعوت إحداهن للخروج، لشرعت أمي تفكر في هدية الخطوبة التي ستقدمها إلينا!

ـ هل وصل الأمر إلى هذا الحد؟

ردّ عليها قائلاً: «صدقي أو لا تصدقي، لكن الأمور تحسنت قليلاً بعد تخرّج شقيقي بيرس من الجامعة وقدومه للإقامة معي هنا».

ـ هل اعتقدت أمك أنه من الأفضل أن تعتني به؟

ـ هذا أحد الأسباب. لكن السبب الأساسي، هو أنها وجدت نفسها تضيّع وقتها معي، وأن بيرس أصبح في سن يسمح له بالزواج. وبيرس أصغر مني بخمسة عشر عاماً. أنا أحب أمي، لكنني أحببتها أكثر عندما تركتني وشأني وحوّلت جهودها إلى بيرس. رغم أن البحث في حالته تركّز على حفيدات صديقاتها وحفيدات إخوتها وأخواتها.

سألته ميرين: «ألهذا السبب سافر أخوك إلى الخارج؟ كي يهرب من الوضع؟».

ـ لا، أبداً. يحب بيرس أن يجد عشاءه جاهزاً من دون أن يضطر للصيد.

فعلّقت ميرين في سرها، وهذا الأمر لا يناسبك يا جيرارد مونتغمري. فأنت ترغب في الصيد ولا تريد أن تُقدّم لك غزواتك على طبق. وأدركت

أن هذا السبب الذي جعله لا يهتم بأي من الفتيات اللواتي قدمتهن له أمه.

ـ لقد خرج بيرس من المعمعة دون أيّ أثر يذكر، وسيمضي سنة خارج البلاد لأنه لطالما خطط لهذه الرحلة. وبهذا، نصل يا ميرين شيبرد إلى بيت القصيد. اسمحي لي أن أخبرك لما أسرّ لك بأمور تخصّ عائلتي وحدها.

نظرت ميرين إليه بحذر، فقد أصبح جاداً فجأة، وفقد ابتسامته. واستغربت أن يخبرها، وهو لا يكاد يعرفها، بتفاصيل حميمة عن عائلته، إذ شعرت أنه يحب خصوصيته ومتعلق بأسرته.

ـ لا بد أن الأمر يتعلق بالنقود. أليس كذلك؟ المال الذي أعطيتني إيّاه؟

هنأها جيرارد قائلاً: «لقد أصبت الهدف. عندما جاءت أمي وأختي لزيارتي منذ قليل، توقعت الأسوأ. فلم يكد يمضي على سفر بيرس أيام حتى أصبحت مجدداً هدفاً لمخططاتهما».

ـ هل تظن أنهما ستعاودان محاولات دفعك للزواج؟

رد عليها على الفور: «أنا واثق من ذلك تماماً! لقد بدأتا لتوهما. جاءت أمي اليوم، بتشجيع من فيدا، لتؤكد لي أنني سأخذلها إذا لم أزرهم في هيلمونت خلال عطلة الأسبوع. وأعتقد أنهما تخططان لأمر ما».

ـ هل تظن أنها وجدت فتاة مناسبة لك، أعني.. شريكة حياة؟

ـ أنا واثق من ذلك. لهذا، أخبرتهما أن لدي مشاريع أخرى. وأصرتا على معرفة هذه المخططات بالطبع.

ـ حسناً، إذا كان لديك صديقة، فمن المؤكد أنهما لن يتوقعا..

ـ ليست لدي صديقة مهمة. لكن، وللحصول على فترة راحة خلال غياب بيرس، اضطررت إلى الادعاء كي أصدّهما عني، وإلاّ تحوّلت السنة القادمة إلى سنة الملاحقات.

توقف عن الكلام للحظة ليلتقط أنفاسه ثم تابع: «ولهذا السبب، وللتخلص من حفلات التعارف التي يحضرانها لي، أخبرتهما أني قابلت امرأة مميزة ولا أريد أن أفوت فرصة لقائها ثانية. آمل أن تتفهما ذلك وإلاّ

تُجرح مشاعرهما إذا لم أذهب إلى هيلمونت في نهاية الأسبوع القادم».

فسألته ميرين: «هل أنت على علاقة بفتاة مميزة؟».

أنكر جيرارد قائلاً: «أنا لست على علاقة مميزة بأي فتاة. لكن عندما أنهيت كلامي، كانت أمي وأختي متأكدتين من أنني مرتبط بعلاقة جادّة».

ـ ألم ترغبا بمعرفة المزيد عنها؟

علّق بخفة على سؤالها: «يبدو أنكِ أصبحت تعرفين كيف تتصرفان. لقد قلت لهما إنني سأعرفهما عليها في الوقت المناسب، مما سيوفر لي بعض الوقت لتحضير خطوتي التالية. وكانتا على وشك المغادرة وهما سعيدتان لأني علقت في القفص أخيراً، ووصلنا إلى الردهة، حين قرع جرس الباب».

نظرت ميرين إليه، لكن عندما التقت نظراتهما، بدا وكأنه لم يعد لديه ما يقوله. فاستعادت في ذاكرتها كيف فتح لها جيرارد الباب، وكيف وصلت أمه وأخته خلفه. كما تذكرت أسئلتهما، وكيف قبّلتها السيدة مونتغمري على خدها. واتسعت عينا ميرين دهشة وهي تقول: «إنهما تظنان.. تظنان بأني صديقتك الدائمة. أليس كذلك؟».

فغرت فمها وهي تتذكر ما جرى.. ألم يقل لها إن حضورها مفاجأة سارة؟ فسألته: «أهذا ما أردتهما أن تعتقداه؟».

ـ ليس قبل أن أنظر إلى أمي وأرى أن عينيها تشعان بالسرور والتشوق. لاحظت أنها وفيدا تحاولان التكهن ما إذا كنت الفتاة المقصودة. وبدا لي من المخجل حينها أن أضيّع الفرصة الحاضرة على عتبة باب منزلي.

سألته ميرين وهي غير واثقة من شعورها حيال هذا الأمر، ومحاولة أن تجاريه: «أتقول فرصة؟ لقد استغليت مجيئي كي..».

قاطعها قائلاً: «لا تنظري إلى الأمر بهذه الطريقة».

ردت وهي تتمالك غضبها: «وهل هناك طريقة أخرى للنظر إلى الأمر؟ بنظرة واحدة إلى أمك استطعت أن تفهم الوضع وقررت الاستفادة منه.. باستغلالي! فمن أيّ زاوية أخرى، يفترض بي أن أنظر إلى ذلك؟».

سألها في محاولة منه لاكتشاف طبيعتها: «هل أنت دائماً عصبية هكذا؟».

وتابع من دون أن يتيح لها الفرصة لتجيبه: «أنا متأكد من أننا سنجد حلاً لمصلحتنا نحن الاثنين، إذا ما صبرت قليلاً».

فغرت ميرين فمها. مصلحة مشتركة! إنه يلمح إلى النقود التي تدين له بها.. لا شك في ذلك، ما أتفه هذا الأمر! ومهما كان الحل فهي لا تزال مدينة له بألفي جنيه.. وليس لديها أي أمل برد المبلغ.

قالت متلعثمة: «تابع، إني أنصت».

ـ من الواضح أن راتبك لا يكفيك، وإلاّ لما أوقعت نفسك بالدين.

ما قاله كان صحيحاً، فجزء كبير من راتبها مخصص لمساعدة عائلة شقيقها المؤلفة من خمسة أشخاص، بالرغم من أن روبرت وعائلته يتلقّون مساعدة حكومية. لكنها لم تكن مستعدة للإقرار بذلك.

تابع قائلاً: «ولهذا، فمن المؤكد أيضاً أنك لن تتمكني من سداد المبلغ الذي أعطيتك إياه البارحة».

تململت ميرين على مقعدها وقد تملكها شعور بعدم الارتياح.

ـ يبدو جلياً أن نواياك حسنة في ما يتعلق بسداد الدين.. ولهذا، أنت هنا.

ـ لقد طلبت مني المجيء.

ـ لم تكوني مضطرة لذلك.

فكرت في أن تقول له: «لكنك تعرف أين أقيم».

ـ هل كنت لتأتين لو أنك لا تفكرين في رد الدين؟

قالت من دون تفكير: «كنت لآتي، بدافع الكبرياء والأمانة».

ـ عظيم.

ابتسم لها جيرارد، وبدا أنه واثق من أمانتها. وخطر في بالها أنه لم يكن ليقدمها إلى أمه وأخته بهذه الطريقة لو ساورته الشكوك حولها.

ـ ومن الواضح أن العثور على وسيلة لسداد هذا الدين أمر مهم بالنسبة

لك . . وإلاّ لما أتيت إلى هنا .

ـ هل وجدت لي عملاً ما؟

ابتسم وقال: «وجدت لك عملاً . . . إذا كنت على استعداد للقيام به» .

ـ لقد أخبرتك من قبل، أنا مستعدة للقيام بأي عمل شرعي .

أكد لها قائلاً: «نعم، إنه عمل شرعي» .

ثم استفهم منها بنبرة عادية: «هل ترغبين في أن تكوني صديقتي لمدة سنة؟» .

حدّقت ميرين فيه، وكأنها ليست واثقة مما سمعته، ثم سألته: «هل أنت جاد؟» .

ـ أقسم لك، بأني كذلك .

اعترضت قائلة: «ولكن . . . لكننا . . لا نكاد نعرف بعضنا!» .

ـ لا حاجة لنا إلى ذلك . . لأن العلاقة ستكون صورية فقط .

ـ من أجل أمك . . أو بالأحرى لمصلحتك؟

ـ ولا تنسي أن أختي هي نائب أمي الموثوق به .

لم يعجب الأمر ميرين فقالت: «ستخدعهما وستستمر في ذلك لمدة سنة؟» .

ـ حتى يعود بيرس ويتحول اهتمامهما إليه .

رغم هذا التبرير، بقي الأمر لا يعجبها فسألته: «ألا تستطيع أن توضح لهما ببساطة أنك لا تريد الاهتمام منهما؟ وأنك سعيد بما أنت عليه؟» .

ـ هل تعتقدين أني لم أحاول ذلك؟

ـ ولم تنجح؟

ـ إن أطول مدة تراجعتا فيها عن عزمهما، هي ثلاثة أسابيع . أنت لديك عائلة، وتدركين كم يعرضك ذلك للضغوط، أحياناً .

ألم تتعرّض للضغط العائلي؟ بلى، فلولا روبرت وحاجته إلى الألفي جنيه لما كانت في هذا الموقف المعقد والمحرج .

تابع جيرارد حديثه: «الأصدقاء يتقبّلون كلمة «لا»، لكن أفراد الأسرة لا يعترفون بها . ولسوء الحظ، يمكن للمرء أن يطلب من أصدقائه أو معارفه الاهتمام بشؤونهم الخاصة، لكنه لا يستطيع أن يطلب ذلك من أفراد أسرته . . الذين يسمحون لأنفسهم بالتدخل في أمورك الشخصية أكثر من الأصدقاء» .

استفهمت ميرين منه: «لكن أليس من الضروري لفت نظرهم إلى ذلك؟» .

ـ تماماً .

ومع ذلك لم تستطع ميرين أن تتقبل خطته بسهولة، لكنها تدين له بخدمة، فسألته بتردد: «ماذا يجب أن أفعل؟» .

أجاب جيرارد: «لا شيء على الأرجح . إنما إذا استطعتِ أن تكوني جاهزة خلال الأشهر القادمة، فسوف تحلّ الأمور بطريقة ترضي الجميع» .

ـ هل تعني «بجاهزة» أن أعطيك رقم هاتفي وأكون حاضرة للمجيء حالما تتصل بي أو أي شيء من هذا القبيل؟

ـ لا أعتقد أنني سأزعجك كثيراً . لكنني، ومن بعد إذنك، سأذكر اسمك في الحديث كلما وجدت ذلك مناسباً . نادراً ما تأتي أمي لزيارتي، ولهذا شعرت أن زيارتها اليوم تنذر بالسوء . يا إلهي، ولم يمضِ يومان على سفر أخي!

ـ ألا تعتقد . . أنك غير عادل مع أمك وأختك . . وأنك تستغفلهما . . ؟

ـ غير عادل! وهل من العدل أن تقحما أنفيهما في حياتي، وأن تصرا على إفساد أسلوب حياتي الذي أعتبره ممتعاً جداً؟

قالت له مواسية: «الحياة ليست عادلة دائماً» .

وشعرت بضرورة ختم الموضوع فقالت: «لقد قلت يا سيد مونتغمري، أن المطلوب مني لسداد الدين هو أن أكون جاهزة للانطلاق بسيارتي إلى منزلك إذا اتصلت بي، من حين إلى آخر؟» .

ـ قد لا يحصل هذا أبداً، كما ذكرت لك من قبل. إنما هذا كل شيء.

حملتها استقامتها الفطرية إلى تنبيهه: «يبدو لي أن الألفي جنيه مبلغ كبير لقاء خدمة قد لا أقدّمها أبداً».

تسمّرت عيناها الزرقاوان العميقتان تحت تأثير عينيه الرماديتين النافذتين وهو يعلّق على كلامها: «دعينا نعتبر هذا المبلغ بدل أتعاب. على فكرة، من الأفضل أن تتدرّبي على لفظ اسمي الأول «جيرارد» عشر مرات في اليوم، تحسباً لما قد يطرأ».

ضحكت ميرين، وأدركت سخافة الموقف فيما لو هرعت إلى منزله وألقت عليه التحية باسم «السيد مونتغمري»، أمام والدته. وعدته أن تتمرن، ثم هبت واقفة على قدميها، حين لم تعد تجد ما تقوله.

رافقها جيرارد حتى الباب الخارجي. لكن، وقبل أن يفتحه لها رمقها بنظرة سريعة وقال لها: «أعتقد أن الأمور ستسير على ما يرام، يا ميرين شبرد».

ثم تنهّد وأضاف: «من المؤسف أنني قد لا ألتقيك مجدداً».

ضحكت ميرين ثانية. ويبدا أنه قادر على جعلها تضحك أو لعل السبب هو ارتياحها لأنها لن تضطر للعمل كل مساء وخلال العطل الأسبوعية؟ قالت له والابتسامة تعلو وجهها: «لنأمل خيراً!».

غادرت منزله وهي لا تزال تبتسم.

أدركت ميرين، وهي تفكر في مسألة النقود، أن الألفي جنيه بدل أتعاب جيد، بالرغم من اضطرارها إلى ترك كل شيء بين يديها والهروع إليه إذا ما اتصل بها.

ركنت سيارتها أمام البيت، وهي تشعر بأن الأمل يومض خلف الغيوم السوداء التي تلف حياتها.

***

٣ ـ شرنقة السحر..

انقضى يوم الأحد، وميرين عاجزة عن طرد جيرارد مونتغمري من تفكيرها. إن كل ما عليها القيام به لكسب المال الذي أعطاها إياه بكل كرم، هو الادعاء أمام أمه وأخته أنها وجيرارد على علاقة وثيقة. وبدا لها ذلك، اليوم، أمراً لا يصدّق.

كما بدا لها أيضاً، أنّ جلّ ما عليها أن تقوم به لاستحقاق هذه «الأتعاب» تلبية ندائه عند يتصل.. وهذا ما قد لا يحصل أبداً بحسب ما قاله جيرارد. أقرّت ميرين في سرها، أنها غير مرتاحة لفكرة الحصول على هذا المبلغ، في حين لا يتوجب عليها القيام بأي عمل لتستحقه. كما أزعجتها فكرة المشاركة في خداع هاتين الامرأتين، عندما يطلب منها ذلك.

اعتقدت أنها، مع مرور الأيام، سترتاح نفسياً للاتفاق الذي يربطها بجيرارد لكنها اكتشفت أنها كانت مخطئة. استيقظت صباح الاثنين من النوم، ولم يبدُ لها الأمر صواباً. وأيقنت، في الأيام التالية، أن العمل الصائب الوحيد الذي عليها أن تقدم عليه هو إعادة الألفي جنيه. ولا علاقة للأمر بالكرامة، فقد عقدا صفقة، لكنها نالت الحصة الكبرى منها. ما كان عليها أن توافق على ذلك، وأن تأخذ منه المال أبداً.

فكرت ميرين في الحلول الأخرى، فوجدت أنها كانت مضطرة في هذه الظروف للموافقة، ولأخذ المبلغ. وفي طريق عودتها من عملها في تلك الليلة، وكان روبرت قد استعار منها سيارتها، قررت أن تبدأ بالتوفير

لكي ترد لجيرارد مونتغمري كل قرش أخذته منه، حالما يعثر أخوها على وظيفة ويستغني عن مساعدتها.

خطر في بالها عندما وصلت إلى الجادة المؤدية إلى منزلها، أن الكبرياء هي التي تدفعها إلى التبريرات. على أيّ حال، يجب أن تتخلص من لقب «المتشردة» الذي أطلقه عليها جيرارد في بادىء الأمر.

وفجأة، توقفت عن التفكير في الرجل الذي عقدت معه اتفاقاً غريباً، وانعقد لسانها حين رأت سيارة قديمة متداعية متوقفة أمام المنزل.

أملت ألاّ يكون روبرت قد راكم المزيد من الديون بشرائه هذه الخردة، أو ألاّ يكون قد قايض سيارتها بمبلغ نقدي وهذه الكومة الصدئة.

دخلت ميرين المنزل مسرعة وأحست بارتياح مزدوج. فلم تكن السيارة من مقتنيات أخيها الجديدة، بل لوالدها الذي جاء لزيارتهم.

سألته بعد أن ألقت عليه التحية: «متى وصلت؟».

ـ منذ عشر دقائق تقريباً. كانت كارول على وشك تحضير الطعام، لكن..

انشغلت كارول المرهقة بصراخ ساموبل وابنتيها المزعجتين اللتين ترفضان القيام بما يطلب منهما.

أخذت ميرين الطفل من بين ذراعي أمه بشكل آلي. لم يكف عن الصراخ، لكن بدا على كارول الارتياح لتخلّصها منه لبضع دقائق، ثم فرضت سلطتها الأبوية ووجهت بعض الكلمات الحازمة إلى ابنتيها.

سألت ميرين أباها عندما خفّ صراخ الطفل قليلاً: «هل يمكنك البقاء معنا لبضعة أيام؟».

ـ أعتقد أنّه بإمكاني ذلك.

تنازلت ميرين عن الغرفة التي انتقلت إليها مؤخراً في العلية لأبيها. ولم تستأ لذلك لأن أريكة غرفة الجلوس كبيرة وبجسمها النحيل وطولها الذي لا يتجاوز الـ «١٧٠ سم»، لن تجد صعوبة في النوم عليها لبضعة أيام وحسب.

سمعت صوت سيارتها تتوقف عند مدخل البيت، وحين دخل روبرت وحيّا والده، ناولته الطفل وبدأت بإعداد الطعام للجميع. راودتها رغبة شديدة في أن تسأل والدها، عما إذا ما استلم رسالتها، وجاء تلبية لرغبتها. ألن يكون هذا رائعاً أن يساعدهم في الأزمة المالية التي يعانون منها؟ لا بل الأزمة المالية التي تعاني هي منها، لأن روبرت تخلص حالياً من ديونه. وهي تفضل أن تكون مدينة لوالدها بمبلغ ألفي جنيه على أن تدين به لجيرارد مونتغمري.

تعالى صراخ الطفل أثناء تناول وجبة العشاء، فعزت كارول الأمر إلى ظهور أسنانه.

وسأل لويس شبرد زوجة ابنه بعد أن لحق بها إلى المطبخ: «ألا يكف هذا الصغير عن الصراخ؟».

ميرين تعتقد أن ساموبل لا يكف عن ذلك.. ولم تدهش عندما قال والدها إنه سيخرج من المنزل. لكنها استغربت حين قال إنه يفكر في زيارة شقيق زوجته، آموس، لأن خالها آموس وأبيها لطالما كرها بعضهما بشدة. كما لم تعرفهما ميرين أبداً إلا وهما على أهبة الاستعداد للإمساك بخناق بعضهما. إنما، لعل مرور السنين قد خفف من حدتهما. لذا ابتسمت ميرين وقالت له: «بلّغ حبي وتحياتي لخالي آموس».

قامت ميرين خلال غياب والدها بتغيير ملاءات سريرها وبترتيب الغرفة، كما رتبت ونظفت الطابق السفلي. عاد والدها إلى المنزل بعد حين وهو يطلق الشتائم، وخمّنت ميرين أن الود بين الرجلين لا زال مفقوداً. على أي حال، ضبط لويس شبرد أعصابه، وألقى عليها وعلى كارول وروبرت تحية المساء، ثم توجّه مباشرة إلى الفراش. وقدّرت ميرين أنه مرهق دون شك بسبب قيادة سيارته من كورنول إلى منزلها.

واكتشفت ميرين مع مرور الأيام أن بقاء والدها معهم لبضعة أيام فقط واضطرارها للنوم على أريكة غرفة الجلوس لبضعة ليالٍ فقط، تخمين خاطىء من قبلها. فقد انقضى شهر، من دون أن تظهر على والدها نيّة في

المغادرة. كما لم يساهم في مصاريف البيت، لذا راح مدخول ميرين ينوء تحت هذا الحمل.

وبما أنه يملك المنزل، وهم يقيمون فيه من دون أن يضطروا لدفع إيجار، لم تتمكن ميرين من أن تطلب منه، بعض المال لشراء علبة حبوب الإفطار للأولاد. أما خيوط الأمل التي اعتقدت منذ خمسة أسابيع أنها شقت الغيوم السوداء التي تلف حياته، فقد بدأت تختفي تدريجياً. كشف لها روبرت أنه أخبر والدهما أن مشاكله المادية قد انتهت، فسرّه الأمر لأنه، هو نفسه يجد صعوبة في كفاية حاجاته.

عادت ميرين بسيارتها من زيارة خالها آموس بعد أن حملت له قالب الحلوى المعتاد لكل يوم سبت، وقد أخذت على نفسها عهداً بألا يتملكها الإحباط. وما العيب في أن يعج المنزل بأفراد الأسرة؟ وما العيب في أن تنام على الأريكة؟ وما همّ أن توقظها الأحلام المزعجة من نومها باستمرار؟

فهي ستخرج الليلة مع بيرتي ارمسترونغ وأصدقاء آخرين وسيذهبون إلى النادي للسهر. لا بأس في ألا تكون حياتها مثيرة، لكن..

تبخّرت الأفكار من رأسها فجأة، حين وصلت بسيارتها إلى طريق منزلها وشاهدت السيارة المتوقفة أمامه. فهي تعرف هذه السيارة جيداً! ألم تجلس قرب سائقها ذات مرة؟

وتسارعت دقات قلبها. لقد قال جيرارد مونتغمري إنه سيتصل بها إذا ما دعت الحاجة. أو.. لعلها ظنت أن هذا ما اتفقا عليه، أو لعلها تناست الأمر نوعاً ما، إذ انقضى شهر بأكمله دون أن يتصل بها.. ألم تكن تفكر في أن توفّر بعض المال لتسديد الدين. لكن يبدو أن جيرارد مونتغمري قد قرر تناسي أمر الاتصالات الهاتفية وزيارتها شخصياً.

ركنت سيارتها أمام المنزل وأسرعت في الدخول. وبنظرة واحدة، استطاعت أن تسجل ما يجري في غرفة الجلوس. ابنتا أخيها تحاولان التدخل في الحديث الدائر بين أمهما وبين الرجل الطويل، فيما الرضيع يحبو أمامهما.

ابتسمت له ميرين وهي تكتم شعورها بالإحراج، إذ لم تشأ أن يطّلع أي فرد من أفراد أسرتها على الاتفاق المالي بينهما. وقالت له ملمحة:

ـ جيرارد! لم أكن أعرف أنك ستأتي، كان يجب أن تتصل بي أولاً.

وافقها بلطف: «نعم. كان عليّ أن أفعل ذلك».

ـ وهل وصلت منذ وقت طويل؟

أجابت كويني عنه: «منذ عشر دقائق».

سألت ميرين ضيفها: «هل ترغب بفنجان من الشاي؟».

فاقترح عليها جيرارد: «إن الطقس رائع اليوم، لعلنا نستطيع شرب الشاي في الحديقة».

ـ سوف أحمل الشاي إلى الحديقة بعد دقائق قليلة.

وفيما كان جيرارد يخرج إلى الحديقة، دخلت ميرين إلى المطبخ لإعداد الشاي.

أوقفتها زوجة أخيها حين رأت أنها تضع أكثر من فنجانين على صينية الشاي، وقالت: «سأشرب الشاي هنا».

سألت ميرين كارول فيما كانت تحمل صينية الشاي: «هل روبرت وأبي خارج المنزل؟».

فردّت كارول بنبرة لاذعة متهكمة: «لقد خرجا بسيارة والدك لشراء صحيفة مسائية تصدر باكراً، ويبدو أن حملها يحتاج إلى رجلين».

تقدم منها جيرارد وحمل عنها الصينية إلى طاولة الحديقة التي ظللتها شجرة سنديان كبيرة. قالت له ميرين على عجلة فيما كانا يجلسان إلى الطاولة: «لم أخبر أسرتي عن اتفاقنا».

فرد عليها برزانة: «إذاً، لن أذكر الموضوع أنا أيضاً».

ولم تستطع ميرين إلا أن تضحك. ما بال هذا الرجل؟ في لحظة يجعلها تشعر بالتوتر، وفي اللحظة التالية يجبرها على الضحك.

سألها وهو يحدق في فمها المبتسم: «كيف حال الخال آموس؟».

أجابته: «كما هو دائماً، مفعم بالنشاط».

استفهم منها فيما كانت تناوله فنجان الشاي: «لكن ألا يهتم بالأولاد؟».

ـ لقد خمّنت ذلك؟

ـ يبدو أنك تحملين الحلوى لخالك كل يوم سبت. ورفضت اليوم أن تأخذي معك ابنتي شقيقك عندما طلبنا منك ذلك.

قالت له بخفة: «يجب أن أشكر كويني التي صوّرتني كخالة سندريللا، القاسية اللئيمة».

تقابلت نظراتهما وقال بهدوء: «ليس هذا ما سمعته».

ـ هل كنت تستجوبهم؟

انتفضت ميرين غاضبة، لكنها أدركت على الفور مدى حمقها عندما تأملها ببرودة. يا إلهي! لِمَ يطرح الأسئلة؟ وماذا سيستفيد منها ومن أسرتها؟

ردّ عليها بعد أن تأملها قليلاً: «لم أكن بحاجة إلى طرح أيّ سؤال».

ـ هل تطوّعت كويني لتطلعك على كافة الأمور؟

أومأ بالإيجاب وقال: «وقد ساعدتها كيتي، عندما اضطرت زوجة أخيك لأن تتركني بمفردي لدقيقتين. اعترف أني أفضّل تبادل الأحاديث مع فتيات أكبر بعشرين سنة على الأقل. لكنني، على أي حال، بذلت جهداً كي أسألهما إن كانتا مرتاحتين في مدرستهما.

ـ موضوع عام لا يورطك.

ـ هذا ما ظننته. وأقسم أني لم أحاول اكتشاف ما لا يعنيني عندما أخبرتني الصغيرتان أنهما التحقتا بمدرسة جديدة وأن أباهما لم يعد يعمل وأنهم انتقلوا للإقامة معك لأن في بيتك غرفاً كثيرة. لكن لم يعد هنالك مكان لأن جدهما انتقل للإقامة معكم أيضاً.

التقط جيرارد أنفاسه ثم نظر إليها مباشرة وسألها: «هل حقاً تنامين على الأريكة في غرفة الجلوس؟».

حدّقت ميرين فيه مستغربة، فقد عكست نبرة صوته شيئاً من الاهتمام

لأمرها، وهي لا ترغب في ذلك. ابتسمت وقالت له: «لا يعني هذا أنني أنام كثيراً».

ولمّا لم يبادلها الابتسام استطردت قائلة: «على أي حال، أبي يملك هذا البيت ويحق له أن يعود إليه».

ـ متى انتقل إلى هنا؟

نظرت إليه ميرين بحنق وقالت: «بصراحة! إذا كنت مصراً على المعرفة، فاعلم أنه وأمي انفصلا عندما كنت طفلة تحبو.

وتابعت بسرعة قبل أن يتمكّن من طرح أيّ سؤال آخر: «أعتقد أنك لم تأتِ لسماع هذه القصص».

لم يجب جيرارد، بل ابتسم لها فجأة ابتسامة ساحرة صعقتها وسألها:

ـ هل يمكنك تناول العشاء معي الليلة، إذا لم يكن لديك ارتباطات أخرى؟

شعرت وكأن قلبها قد قفز من مكانه من دون أن تجد سبباً لذلك. يا للهول! إن كان يمهد لكل دعوة بمثل هذه الابتسامة، فلا بد أنه لم يقابل بالرفض يوماً. وبما أنها من طينة أكثر صلابة، تمالكت ميرين نفسها وقالت باشمئزاز: «لم تدعُني إلى العشاء إلاّ في الليلة الوحيدة في السنة التي أخرج فيها».

وكان الرد على هذا الكلام ابتسامة أخرى، ثم ضحك، فتخبط قلبها بين ضلوعها ثانية وبشكل سخيف.

فقال ملحاً: «ألغي الموعد».

كانت ميرين تعرف أن كل ما عليها أن تفعله هو أن تتصل ببيرتي ارمسترونغ لتقول له إنها ستتناول العشاء مع شخص آخر وسيكون جوابه تمتعي بأمسيتك، نلتقي في الأسبوع القادم. ولكنها هزت رأسها بالرفض، فجيرارد لم يكن يدعوها للخروج معه في موعد.

قالت له وكأنها تفكر بصوت مرتفع: «أنت لا ترغب حقاً في اصطحابي لتناول العشاء. فما الذي تسعى إليه؟ هل أمك وأختك..؟».

فقاطعها جيرارد وقال: «تسببان لي المتاعب؟ باستطاعتك قول ذلك. لقد زارتاني في الشهر الماضي مرتين، وتلقيت العديد من الاتصالات الهاتفية».

ثم أضاف بمرح: «ميرين، يا منقذتي القديمة، أحتاج إلى مساعدتك».

لم تعجبها كلمة «منقذتي القديمة» لكنها ردّت بطيبة خاطر: «ولمَ أنا موجودة إذن؟ كان عليك أن تتصل بي قبل ذلك، لآتي و...».

قاطعها جيرارد قائلاً: «استطعت معالجة الأمر. أخبرت أمي وفيدا أنك خرجت للتسوق مع بعض الأصدقاء، وأنّني سأقابلك الليلة. وأن ما من مشكلة بيننا. ولكن..».

- أوه، تباً! ألديك مشكلة الآن؟

أجابها، وكأن المشكلة تشملها أيضاً:

- إنها أمي التي ترفض أن يتجاهلها أحد، ولا تظني أني لم أحاول ذلك، انتظرت حتى أنهيت حديثي عن أننا نتطلع بشوق إلى يوم من الراحة التامة غداً، فأصرّت على أن نزورها في هيلمونت لشرب الشاي.

لم تكن ميرين سعيدة بهذا فقالت: «لشرب الشاي؟ أمك أصرت، رغم أنك قلت لها..».

- راحت تقول لي إنني أتصرف بأنانية لأنني لم أخصّص ساعة من نهار الأحد كي أقدمك إلى والدي.

بدأت ميرين تفصح عن شكوكها: «أوه يا جيرارد.. أنا لا أعرف».

- ما الذي لا تعرفينه؟

فركت ذقنها الدقيق مظهرة قلقها، وقالت: «أصبح الأمر مختلفاً، أليس كذلك؟ أعني، أن أهرع إلى منزلك لندّعي بأننا على «علاقة» شيء، ومرافقتك إلى منزل والديك وخداعهما بهذه الطريقة شيء آخر، فهذا لا يبدو لي صواباً على الإطلاق».

- أتفهم وجهة نظرك، وأقدر لك ذلك. لكننا نخدعهم على أي حال،

إن جرى ذلك في منزلي أو في منزلهما.

ردت متلعثمة: «أنت على حق بالطبع، لكنني سأشعر بأنّني أسيء إلى ضيافتهما».

- إذا حالفنا الحظ، فلن نبقى هناك أكثر من ساعة. ولا يتوقع منك أحد أن تعانقيني بين الحين والآخر.

ردّت: «على المرء أن يشكر ربه لرحمته التي ينزلها في أوج المصاعب».

ضحك، فضحكت هي أيضاً.

وسألها: «هل أتصل بك عند الساعة الثامنة؟».

فأجابته موافقة: «سأكون جاهزة».

وحالما انتهيا من شرب الشاي، وقفا فاعتقدت ميرين أن جيرارد سيرحل، بما أنه حصل على ما جاء من أجله. لكن ولدهشتها، تريّث قليلاً، وأمسك ذراعها بخفة وقال: «أعرف يا ميرين أنك حساسة، لكن حاولي ألا تقلقي. أعدك بأن أعتني بك».

رفعت نظرها إلى وجهه الوسيم وشعرت أن الكلمات خانتها فجأة. وسمعت صوت سيارة عند مدخل البيت، فتراجعت مبتعدة عنه على الفور وألحّت عليه وقد أصابها الذعر: «من الأفضل أن تأتي لتقابل والدي. ولا تأتِ على ذكر الألفي جنيه لأبي أو لأخي».

أعلمتها نظراته أنه لن يفعل، فبدأ ذعرها يزول وهو يسألها: «ألا يعرف والدك أنك أردت المال من أجل أخيك؟».

أوضحت له بصوت هامس أن والدها لا يعرف شيئاً عن مسألة النقود. وأضافت بعد تفكير: «أنا لم أقل لك إنني أحتاج المال من أجل أخي».

- يا عزيزتي ميرين، لا حاجة لذلك، فأنا لست أعمى ولا أطرش. ولست غبياً كي لا ألاحظ أن الفواتير المستحقة التي ذكرتها ليست لك بل لأخيك.

حاولت أن تحتج، وأن تنكر لكنها لم تستطع. على أيّ حال، كان

والدها وأخوها قد أصبحا على مقربة منهما. لهذا، ابتسمت له والتفتت إلى أهلها تعرفهما على صديقها جيرارد.

سأل أبوها جيرارد: «هل هذه الجاغوار لك؟».

كما أثنى روبرت على السيارة قائلاً: «ما أجملها!».

وقبل أن تدرك ما يجري، خرج الرجال الثلاثة إلى الشارع وأخذوا يتفحصون السيارة الرائعة الصنع.

شعرت بأنها ستكون خارج إطار الصورة لو لحقت بهم، ففضلت أن تدخل إلى المنزل. وإذا ما أراد جيرارد مونتغمري أن يقول لها شيئاً، فهو يعرف أين يجدها. لقد حصل على ما جاء من أجله، أي موافقتها على زيارة والديه غداً، فما الذي سيدعوه إلى تحمل عناء العودة إلى المنزل كي يودّعها؟

لم يفعل ذلك. دخل والدها وتبعه أخوها، ولم يكن هناك أيّ أثر لجيرارد مونتغمري. انهمكت ميرين في أعمال المنزل المعتادة، وقد استغربت شعورها بالمرارة لأنه استقل سيارته وانطلق بها لتوه، هي التي لم يكن من عادتها أن تستاء أو أن تغتاظ. لكنها تغيّرت منذ التقت به.

سألها والدها عند أول فرصة: «أين تعرفت إلى صديقك جيرارد مونتغمري».

أجابته: «عن طريق أخيه».

ـ إن أقل ما يقال عنه إن جيوبه عامرة!

استطرد والدها في الكلام وشعرت بالغثيان إذ بدا جلياً أن سيارة الجاغوار وهالة المال التي تلف جيرارد أثّرتا في نفس والدها.

شعرت ميرين بالسرور للقاء بيرتي ارمسترونغ وعدداً من الأصدقاء، لاحقاً. كانت عشرتهم سهلة، خالية من التعقيد، على خلاف ما تشهده حياتها في هذه المرحلة.

كانت ميرين جاهزة، عندما ركن جيرارد سيارة الجاغوار أمام منزلها في اليوم التالي. وبما أن الطقس كان حاراً، رأت أن فستانها الحريري

الأصفر البسيط هو الخيار الأنسب.

فتح والدها الباب لجيرارد، سابقاً إلى ذلك كويني وكيتي، إذ يمكنه أن يكون رشيقاً في مشيته عندما يريد ذلك. لم تشأ ميرين أن تتلكأ فحيّت جيرارد مبتسمة، ثم ودّعت أسرتها على عجل. ورغم ذلك، لاحظت أنهم خرجوا معها ورافقوها حتى السيارة.

علّق جيرارد حالما انطلقا: «اللون الأصفر يلائمك جداً».

ـ هل تقصد أن كلامي لاذع قليلاً؟

تمتم بطريقة جعلتها تشعر بالخجل: «أوه، يا لكلامي! لقد بدأت ليالي الأرق تؤثر فيك. اسمحي لي أن أعيد صياغة كلماتي: «أنت جميلة يا آنسة شبرد، لكنك تبدين اليوم رائعة في اللون الأصفر».

تسارعت دقات قلبها لأن جيرارد يراها جميلة. لكن على الفتاة ألاّ تنجر بسهولة، وأن تبقي قدميها على الأرض، لهذا عنّفته قائلة: «دعني وشأني».

فضحك وشعرت على الفور بأنها أفضل حالاً.

ستستغرق الرحلة ساعتين. وفي حين أنها تشعر بالتوتر بالنسبة للخديعة التي تورطت فيها، وجدت أن رفقة جيرارد تشعرها بالراحة والاطمئنان.

تملكها شعور بالارتياح أثناء الرحلة، إلى أن ألقى عليها نظرة جانبية وأبدى ملاحظة: «من الأفضل أن نعرف المزيد عن بعضنا البعض».

ـ أرجو ألاّ تعني أيّ شيء غير لائق.

تعمّدت أن تلفت انتباهه إلى ذلك قبل أن يقدم على أيّ تصرّف.

قال لها جاداً: «أنت فتاة متمردة!».

ثم أضاف: «سوف أشرح لك الأمر. أعرف أنك فتاة مهذّبة، وليس لديك أيّ تجربة مع الجنس الآخر. لكن، وكي لا تنكشف خدعتنا، يجب أن تخبريني بأي شيء عنك يفترض بي أن أعرفه».

ـ أنت تعرف كل شيء!

ـ أين تعملين؟

أجبرها هذا السؤال على تقبّل اقتراحه، فقالت: «لقد فهمت ما ترمي إليه. أعمل كسكرتيرة لدى دنيس شابمان في شركة للتصاميم الكهربائية، تدعى (التصاميم المحسّنة). لعلك سمعت عنها من قبل».

قال لها: «إنها شركة جديدة، أخذ صيتها يذيع. هل يعجبك العمل معهم؟».

فردّت عليه: «كثيراً».

شعرت أن بإمكانها أن تجاريه إذا ما اقتصرت أسئلته على عملها.

وحالما انتهى استفهامه عن عملها، تابع بلطف أكبر: «توفيت والدتك منذ سنة تقريباً؟».

أوضحت له ميرين وهي تنظر عبر نافذة السيارة الجانبية، دون أن ترى المناظر: «كانت ضحية بريئة لسائق مبتدىء».

ـ لا شك أن بيع خاتمها قد آلمك كثيراً.

شرعت تقول، وقد نسيت أنها أخبرته أنها باعت خاتم أمها:

ـ أنا...

ثم تابعت وقد تمالكت نفسها: «لكن.. لا أعتقد أن هذا يندرج في إطار الأمور التي تحتاج إلى معرفتها».

تقبّل احتجاجها وقال: «إذن، ماذا يعمل والدك؟».

يا له من سؤال محرج! حاولت أن تراوغ: «يعمل؟».

ـ أعني عمله، ما هي مهنته؟

إنه يتظاهر بالصبر! كانت ميرين واثقة من أنه عرف أنها فهمت ما يعنيه، فأجابت: «في الوقت الحالي، هو.. لا يقوم بأي عمل على وجه التحديد».

ـ هل هو متقاعد؟

يبلغ والدها الثانية والخمسين من عمره. شعرت أن من واجبها الدفاع عنه، ربما لأنه والدها، رغم هجره لأمها عندما كانت هي طفلة صغيرة،

رغم أنه لم يكن أباً حقيقياً بالنسبة إليها منذ ذلك الحين وربما قبل ذلك أيضاً.

ـ ماذا يعمل والدك؟

ردت على سؤاله بسؤال مماثل، لكن محاولتها لتغيير مجرى الحديث لم تفلح.

قال جيرارد: «إنه واحد من أهم علماء النفس المتخصصين في الأطفال. وهو متقاعد الآن، لكنهم ما زالوا يستشيرونه».

ولم يتراجع عن محاولاته لمعرفة المزيد عنها، فتابع أسئلته: «بما أن والدك وأخاك لا يعملان، فلا بد أنك الوحيدة التي تعمل في الأسرة».

اعترضت على كلامه: «أنا لم أقل ذلك قط».

ولكنه تابع غير مكترث باعتراضها: «وأنت الوحيدة التي تتقاضى راتباً، وتعيل عائلة مؤلفة من سبعة أفراد».

آه! لو أنها لا تدين له بألفي جنيه لنزلت من سيارته وعادت إلى البيت زحفاً. انتفضت بشدة وقالت: «أراهن أن أباك كان يحلل نفسيتك كطفل».

شعرت برغبة في ضربه عندما رمقته بنظرة جانبية، ولاحظت أنه يكتم ابتسامته، وكأنها تعمل دوماً على تسليته! لقد طفح الكيل منه!

تابعت وكأنها على أهبة القتال: «على أي حال، يبدو أن اسمي ورد غالباً خلال الأحاديث مع أمك، ومن الأفضل أن أعرف ماذا قلت عني».

ـ ماذا أستطيع أن أقول إلا أنك لطيفة، وممتعة..

صمت للحظة ثم تابع يقول: «.. وليس لديك أيّ ذرّة من الطباع السيئة».

كم تودّ لو تكسر بعضاً من عظامه! أخذت ميرين نفساً عميقاً كي تتمالك نفسها، فهذا الرجل يثير أعصابها ولم يعجبها هذا الأمر. ليس من عادتها أن تتشاجر، وها هي تفكر في تكسير عظامه! فما الذي حدث لها مؤخراً؟

بذلت جهداً كي تسأله بلطف: «ما الذي عليّ أن أعرفه عنك؟».

فدعاها قائلاً: «اسألي ما تشائين».

وأدركت أنها تعرف عنه الكثير. لديه شقيق وشقيقة، ويسكن في بيت رائع في أحد أحياء لندن الراقية. كما تعرف أنه عضو في مجلس إدارة شركة روكسفورد ويرينغ. من المؤكد أن هذا يكفي لقضاء ساعة في منزل والديه؟

مع ذلك، وبما أنه ينتظر بهدوء للإجابة عن أيّ سؤال يخطر على بالها، طرحت عليه السؤال الوحيد الذي خطر لها:

ـ ماذا عن النساء.. صديقاتك؟ استنتجت أن لديك العشرات منهن، فهل عليّ أن أعرف أيّ شيء عنهن؟

ربت بيده على ركبتها، وقال: «ميرين، يا حلوتي، أؤكد لك أن أمي وأبي لن يأتيا على ذكر صديقاتي في حضورك. كما أنني لن أقدم على ذلك أبداً».

إنه يتلاعب بأعصابها ويسخر منها، لقد أدركت ذلك. وافترضت أن سؤالها كان سخيفاً، فمن سيعتقد أنها مهتمة بهذا الرجل البائس! وبالطبع لن يأتيَ والداه على ذكر أيّ امرأة أخرى خلال وجودها هناك.

أكملا رحلتهما إلى هيلمونت في صمت. لكن حين توقفت السيارة أمام المدخل انتابها شعور بعدم الرضا لما توشك على القيام به. ذكّرت نفسها بالأتعاب التي تقاضتها لقاء هذه الخدعة، كي تشدّ من عزيمتها.

كان هيلمونت بيتاً جميلاً من الطراز القديم يقع ضمن مساحة واسعة من الأراضي. ولطالما اعتقدت ميرين أن منزلها كبير. على الأقل، هذا ما اعتقدته إلى أن انتقلت الأسرة كلها إليه. لكنه بدا تافهاً وصغيراً مقارنة مع هيلمونت الذي يفوقه حجماً بثلاث مرات.

امتلأ قلبها بالحبور، رغم التوتر الذي تملكها، عندما دار حول السيارة وفتح لها الباب وأمسك بيدها، ولم يتركها بعد ذلك، بل أبقاها في يده.

ابتسم لها وقال: «لا تقلقي، سيكون كل شيء على ما يرام».

ثم رافقها إلى داخل البيت فيما هرع والداه لإلقاء التحية عليها. رحبت بهما أمه، ووجدت ميرين أن أباه رجل هادىء.

أشرفت هيلين مونتغمري على تقديم الشاي، وانسابت الأحاديث بينهم بسلاسة فأحست ميرين بالارتياح. وأدركت أن سبب شعورها هذا هو طباع مضيفتها اللطيفة، كما شعرت بأنها لم تنسجم معها وحسب، بل أعجبت بها أيضاً.

راحت تتبادل الأحاديث مع والدي جيرارد. فكانت تتحدث إلى أمه أحياناً، حين كان هو يتناقش مع والده في المسائل الهندسية. كانت زيارتهما قد شارفت على نهايتها، حين ذكرت السيدة مونتغمري أن جيرارد أخبرها أن أمها توفيت، فقالت لها متعاطفة: «أنا آسفة لذلك، فأنت شابة صغيرة! لا بد أن فقدانها تجربة صعبة، وأن وفاتها لا زالت تؤلمك. لكنك تعيشين مع أفراد أسرتك الآخرين، أليس كذلك؟».

تدخل جيرارد في الحديث وقال: «أسرة لطيفة».

سألته أمه وقد بدا عليها الاهتمام الشديد: «هل تعرّفت إلى أفراد عائلة ميرين كلهم؟».

لا بد أن ابنها الحريص على عزوبيته متعلق جداً بميرين.

أجابها جيرارد: «كلهم ما عدا خالها أموس..».

لكن وقبل أن ينهي كلامه، استلمت أمه دفة الحديث وقالت: «إذن، يجب أن تتعرف ميرين إلى أفراد أسرتك».

قاطعها والده: «لا يمكنك أن تتمنيّ لها ذلك!».

لكنه تراجع مقهقهاً حين لاحظ النظرة التي رمقته بها.

تابعت هيلين مونتغمري حديثها، لكنها وجّهته هذه المرة إلى ميرين وليس إلى جيرارد: «كما كنت أقول، قد يهمك أن تتعرفي إلى أفراد عائلة جيرارد».

سكتت للحظة، وكأنها تنتظر الرد. كان عليها أن تجيب ولا يمكنها أن تقول لها بأن هذه الفكرة لا تهمها كثيراً. وبما أن جيرارد لم يساعدها،

لم يبقَ أمام ميرين سوى أن تقول: «يسرني ذلك».

ارتسمت ابتسامة عريضة على وجه السيدة مونتغمري وقالت: «ستبلغ عمة والد جيرارد الثمانين من عمرها بعد أسبوعين، وسنقيم لها، في هذه المناسبة، حفلة عشاء. يجب أن تحضريها لأن أفراد العائلة كلهم سيكونون هنا».

انتظرت ميرين أن يتدخل جيرارد، لكنه لم يفعل. وألحّت السيدة مونتغمري قائلة: «سوف تأتين مع جيرارد، أليس كذلك؟».

ـ شكراً. لا...

ترددت قليلاً، فاعتبرت السيدة مونتغمري شكرها دليلاً على قبولها الدعوة.

وظهرت الغبطة على وجه هيلين، فشرعت في وضع المزيد من المخططات، وقالت: «عظيم! سيمضي جيرارد ليلة الحفلة هنا، وأنت أيضاً بالطبع».

حتى لو استطاعت ميرين أن تجد طريقة للتملص من هذه الدعوة، لمنعها حماس هيلين مونتغمري المفرط من التلفظ بأي كلمة. أما جيرارد فلا يزال ملتزماً الصمت.

كانت ميرين لا تزال مذهولة عندما ألقيا تحية الوداع على هيلين وأدوارد مونتغمري اللذين خرجا لتوديعهما.

ذكّرتهما والدة جيرارد فيما كان هذا الأخير يدير محرك السيارة: «يوم السبت بعد أسبوعين!».

فلم ينبس جيرارد ببنت شفة، ولم يكن السير مزدحماً بحيث يتطلب الكثير من التركيز.

ابتسمت ميرين ولوّحت لهما بيدها، وسرّها أن يصلا إلى الطريق الرئيسية، فكادت تبتسم. يا لها من كارثة! يا لها من كارثة فظيعة! أحسّت ميرين بالغيظ يتآكلها. ما كان عليها أن ترافقه منذ البدء، ما كان عليها أن تفعل ذلك أبداً. لكن ما هي خياراتها الأخرى؟ فهي مدينة له.

وبدأت ميرين تدرك مع مرور الوقت، أنها ليست الوحيدة المغتاظة. يا للعنة! لقد رافقت جيرارد اليوم في زيارة خاطفة إلى منزل والديه كي يرضي أمه.. لكنها ماذا فعلت؟ قبلت دعوة أمه ليس على العشاء وحسب إنما على المبيت عندهما أيضاً. لا بد أن العازب السعيد غاضب جداً!

قالت غاضبة: «ليست غلطتي!».

ـ أليست غلطتك؟

كانت نبرة صوته عادية بالنسبة إلى رجل غاضب، ولكن ميرين لم تطمئن فقالت له: «لـمَ لم تقل شيئاً؟».

إذا ما تحوّل الأمر بينهما إلى حرب، فهي مستعدة لذلك. لكنها تريد أن تكون الضربة الأولى لها.

وكان جوابه أن انحرف بالسيارة ليوقفها إلى جانب الطريق، ثم نظر إليها واستفهم منها بلطف: «هل تريدين المشاجرة؟».

لم يبدُ عليه الغضب، بل شعرت أن ثورتها الغاضبة تسلّيه، فانتفضت قائلة: «وهل هناك مناسبة أفضل لنتجادل؟».

ـ يبدو أن ثورتك ليست بسبب شيء ما قلته.

صرخت به منفعلة: «لقد لاحظت المسار الذي أخذه الحديث. وكنت تعلم أنكم ستقيمون حفلة في عطلة نهاية الأسبوع بمناسبة عيد ميلاد عمة أبيك، فلم لم تتدخل و..؟».

فقاطعها قائلاً: «لأنني كنت مأخوذاً بجمالك».

تطاير الشرر من عينيها: «مونتغمري، كفّ عن ذلك!».

قال لها بلطف: «أنت حسناء».

ومال نحوها، وعانقها.

كان عناقاً رائعاً ورقيقاً جداً، فتسارعت دقات قلب ميرين، وجاهدت بصعوبة لتتماسك. استطاعت بعد أن التقطت أنفاسها أن تقول: «ما سبب هذا العناق؟».

ابتسم لها جيرارد وأجابها: «ألا تفعلين أيّ شيء عفويّ سببه نزوة

ما؟».

ـ اعتقدت أنك مغتاظ، وغاضب جداً مني.

ـ كيف يمكنني ذلك؟ لم تكن أمي لتقبل بالرفض سواء أصدر عنك أم عني. وإن كان من أحد يجب أن يلام، فهو أنا. كما يحق لك أن تحنقي وتغتاظي أكثر مني.

حدقت ميرين فيه، وقالت له وهي تبتسم: «على ذكر الحسن والجمال، أنت أيضاً لا بأس بك».

فسألها: «ألا يحق لي إذن بعناق؟».

ضحكت ميرين وقالت: «لم أقل إنك وسيم لهذه الدرجة».

لكن ابتسامتها اختفت عندما سألته بجد: «هل ستتولى أمر توضيح سبب عدم حضوري حفلة عيد ميلاد عمة أبيك؟».

حدّق جيرارد فيها بجد، وعيناه الرماديتان الثاقبتان تسبران أغوار عينيها الزرقاوين العميقتين: «دعي الأمر لي.. سأندبر حجة ما».

وعدها ثم تحوّل عنها وانطلق بالسيارة. وبعد حين، أقرّت لنفسها أنّه من السخف أن تجهد كي تتملص من الذهاب إلى منزل والدي جيرارد. ووجدت نفسها خلال رحلة العودة تتمنى أن ترافق ابنهم الأكبر إلى حفلة العشاء التي ستقام خلال عطلة نهاية الأسبوع في هيلمونت.

***

٤ ـ تقعين في الفخ...

لم يغب جيرارد مونتغمري عن ذهن ميرين طوال الأسبوع الذي تلا زيارتهما إلى هيلمونت، وتمنّت أن تتمكن من التوقف عن التفكير فيه. لكنه لم يفارق خيالها لا في العمل ولا في البيت. كان حاضراً وهي تطبخ وتنظف وتغسل الثياب أو تكويها.

اعترفت لنفسها أن حياتها تافهة، ولم تستطع أن تتذكر متى شعرت أنها تافهة إلى هذا الحد من قبل.

منذ متى؟ منذ قابلت جيرارد؟ أدركت أن جيرارد يعرف أنه قادر على إثارة حفيظتها، إذ لم يكن من عادتها أن تثور بهذا الشكل، وعلى إثارة مشاعرها عندما أقدم على عناقها.

ذاك العناق! يا للسماء.. فهي لا تزال ثملة من سيل المشاعر التي أثارها فيها.

سألها والدها صباح السبت: «هل ستقابلين جيرارد الليلة؟».

فردت عليه: «ليس الليلة. سأخرج مع بيرني و..».

استفهم منها والدها: «هل تخرجين مع بيرتي ارمسترونغ لأنك تفضلينه على جيرارد مونتغمري؟».

وقبل أن تتمكن من الرد عليه، استطرد بنبرة أسف: «لا شك أنك مجنونة! جيرارد مونتغمري رجل غني ويستطيع أن يقدم لك كل ما تحتاجينه، بينما لا يبدو بيرتي ارمسترونغ..».

قاطعته ميرين وهي تشعر بالمهانة لأن أباها يفكر بهذه الطريقة: «هل

تعتقد أن المال مهم بحيث عليّ أن أخرج مع الرجال للحصول عليه».

تبرّم والدها بوقاحة: «حسناً، إن الراتب الهزيل الذي تجلبينه إلى المنزل لا يكفي».

شعرت ميرين أنّ حدّة طباعها التي اكتشفتها حديثاً، والتي يثيرها جيرارد حصرياً، تكاد تثور. وكادت تقول له إن راتبها الهزيل كان ليكفيها لو أعاد لها المال الذي سلفته إياه أكثر من مرة.

لكنها اكتفت بأن تقول: «من الأفضل أن أذهب لزيارة خالي أموس».

لم يرد عليها والدها. فحملت طبق الحلوى وخرجت إلى سيارتها، لا يجب ألا تتشاجر مع والدها، فما من داع لذلك. إنما لم يبدر عنه ما يدلّ على أنه سيعود إلى كورنول أو أنه سيبحث عن عمل. كما أن روبرت لم يعد مكترثاً بالبحث عن عمل. وبدت كارول التي تجاهد لتوفر لأولادها عيشاً كريماً، وكأنها على وشك أن تهجر كل شيء، وغالباً ما كانت تبكي. كان روبرت وعائلته قد خرجوا في سيارة والدها الذي فضل البقاء في المنزل والتمتع ببعض الهدوء والسكينة.

سألها خالها أموس بمرح عندما رآها: «كيف تجري الأمور في مسكنك؟».

ـ لا يمكنها أن تكون أفضل.

سألها ليطمئن عليها: «هل أنت بحاجة إلى المال؟».

طمأنته بابتهاج: «لا، أبداً!».

ألحّ عليها: «ستخبرينني إذا احتجت لأيّ شيء؟ أعرف أن كبرياءك ستمنعك، لكنني من أفراد الأسرة، وأستطيع أن أقدم المساعدة..».

ـ أوه يا خالي الحبيب، كف عن القلق، نحن حقاً على ما يرام!

ابتسمت له، فقد كانت تحبّه كثيراً لا سيّما أنّه مستعد لأن يشحذ كي يساعدها، وهو الفقير المعدم.

أسعدتها الزيارة التي قامت بها إلى خالها، وتذكرت في طريق عودتها إلى المنزل، كيف تمنّت أن تنتقل للإقامة في منزل خالها. وفجأة، جعلتها

هذه الأمنية تفكّر في الانتقال من المنزل الذي نشأت وترعرعت فيه إلى شقة صغيرة. ولكن كيف تستطيع الانتقال؟ فقد كانت سعيدة حيث تعيش قبل أن ينتقل الجميع للإقامة معها، كما أن اعتماد كارول المسكينة عليها يزداد يوماً بعد يوم.

ومع حلول يوم الأربعاء في الأسبوع التالي، أصبح ركود حياتها قاتلاً. وبدا جلياً أن جيرارد استطاع أن يعطي والدته حجة مقنعة لعدم حضورها حفلة العشاء المقامة بمناسبة عيد ميلاد عمة والده، أوكتافيا، يوم السبت القادم.

وفكرت ميرين في أنها قد لا تراه ثانية أبداً.

بيد أنها رأته ثانية في اليوم التالي، وعلى صفحة جريدة. فقد تأخرت في عملها ذاك المساء وكانت على وشك المغادرة عندما لمحت على مكتب رئيسها دنيس تشابمان، نسخة إحدى الصحف المسائية. وبعد أن ألقت نظرة سريعة على الصفحات المفتوحة، جمدت في مكانها. فقد شاهدت صورة جيرارد مونتغمري تنتصب أمام عينيها! تمعنت ميرين بالصورة أكثر وهي متسمرة في مكانها. بدا أكثر وسامة في بذلة السهرة. وقد التقطت له الصورة مع مرافقته حين كانا يحضران حفلة موسيقية خيرية.

لم ترغب ميرين في النظر إلى المرأة الرائعة الجمال التي تتأبط ذراعه، لكنها فعلت. وشعرت بنوع من الإعياء يجتاح كيانها وهي تنظر إلى هذه السمراء الأنيقة الممشوقة القد. وعزت ميرين هذا الشعور بالإعياء إلى الإرهاق في العمل، وأملت أن يزول حالما تتناول بعض الطعام.

قال لها دنيس تشابمان مبتسماً عندما عاد إلى مكتبه: «لقد جلبت لي المستندات!».

ابتعدت ميرين عن مكتبه، لكنها حملت معها الصحيفة التي نشرت صورة جيرارد. كان اسم رفيقته الباسمة والمتعلقة بذراعه، ايزادورا توماس.

استغربت ميرين حين اكتشفت أنها فقدت شهيتها، في حين كانت تعتقد أنها جائعة. وكان لهذا الأمر حسناته، إذ أن كارول لم تبدأ بعد بتحضير الطعام. وما إن دخلت ميرين حتى سلمتها الصغير ساموبل واستدارت نحو زوجها وأخذت تصرخ في وجهه. دار شجار بين البنتين، ولكي يكتمل هذا الهرج والمرج، رن جرس الهاتف.

صرخت كويني: «أنا سأجيب!».

وصاحت كيتي: «لا، أنا التي ستفعل!».

لكن ميرين كانت الأقرب إلى الهاتف فأنهت المسألة برفعها السماعة. قالت: «ألو».

ـ هل أنت غاضبة أم يمكننا أن نتحدث؟

طرح جيرارد سؤاله هذا فيما انفجر الجدال عالياً بين ابنتي أخيها وتعالى صراخ ساموبل في أذنها الأخرى.

اخترق صوته الجلبة المحيطة بها فقال: «من هذه الضجة، أستطيع أن أعرف أنك لن تتمكني من الكلام. لذا سآتي إليك، إلا إذا كان لديك مشاريع أخرى؟».

فردّت عليه منتفضة: «سوف ألغي الموعد».

أعادت سماعة الهاتف إلى مكانها بسرعة، ثم أبعدت يدي كيتي الممسكتان بشعر كويني، وتساءلت عما يحدث لها. فبالرغم من سرورها البالغ لسماع صوت جيرارد، ها هي تشعر بمرارة لاذعة؟

عاد الهدوء إلى البيت بعد ساعة، بعد أن خلدت البنتان وكارول للنوم، فيما راح روبرت يحاول الاعتناء بابنه القلق. وخرج لويس شبرد، بعد أن استدان منها المال مرة أخرى.

بدلت ميرين ملابسها وارتدت سروالاً من الجينز وقميصاً وذكّرت نفسها بضرورة ضبط أعصابها وعدم الثورة لأتفه الأسباب. فبأي حق يمكنها أن تستاء من جيرارد؟ لولاه لما سددت الديون، ولزجّ أخوها في السجن، ولوقعت في مشاكل أخرى هي في غنى عنها.

وبما أنه يستحيل توقّع موعد عودة الفوضى، راقبت ميرين وصول جيرارد من نافذة غرفة الجلوس وخرجت من المنزل حالما رأت سيارة الجاغوار. قابلته فيما كان يفتح بوابة الحديقة، وقالت: «أنت على الرحب إذا أردت الدخول، ولكن أيّ أحاديث تريد أن تتناولها معي، قد تقاطع حالما تلمح ابنتا أخي سيارتك من نافذة غرفة نومهما».

وافقها الرأي، واصطحبها إلى سيارته قائلاً: «سنتحدث في السيارة».

استفهم منها بلطف شديد وهو ينطلق بسيارته مبتعداً: «أرجو أن تكوني قد تدبرت أمر إلغاء موعدك؟».

أجابته بوداعة: «كل شيء يهون من أجلك».

رد متمتماً: «كما يجب أن يكون عليه الحال».

ولم تعرف ما إذا كان عليها أن تضحك أو أن تضربه.

قاد جيرارد سيارته لفترة وجيزة قبل أن يسلك طريقاً ريفياً. أوقف السيارة إلى جانب الطريق، فاستدارت ميرين لتنظر إليه فيما استدار بدوره ليواجهها.

استفهم منها عرضياً: «كيف أحوالك؟».

ردت عليه بالمثل: «لا شيء يدعو إلى الشكوى. وماذا عن أحوالك؟».

اعترف لها قائلاً: «أنا واقع في.. مشكلة كبيرة».

ـ هذا ما سيحدث عندما تدعهم يلتقطون لك صورة وأنت تلف ذراعيك حول امرأة رائعة الجمال!

رد عليها دون أن يعلّق على مبالغتها في الوصف: «هل رأيت الصورة؟ أمي رأتها أيضاً!».

ـ وهل اتصلت أمك بك؟

ـ لقد اتصلت قبل أن أتصل بك بدقيقتين.

اتهمته ميرين: «أنت ترتعد خوفاً.. هل ظهرت الصورة في طبعات الصحيفة المسائية؟».

ـ لم تقرأ أمي الصحيفة لكن زوج أختي، ويسلي، حمل الصحيفة معه إلى منزله، وقامت فيدا، سامحها الله، بإرسال الصورة إلى أمها بالفاكس.

قالت له ميرين بانشراح: «لقد وقعت في ورطة، فجميع أفراد الأسرة يتآمرون عليك».

ـ باستطاعتك تكرار هذا القول، لأنه صحيح.

ـ وهكذا قررت أنك اكتفيت وجئت لتخبرني أن علاقتنا قد انتهت وأنك ستخبر أمك...

توقفت ميرين عن الكلام للحظة ثم تابعت: «لِمَ حمّلت نفسك عناء المجيء لإخباري بذلك؟ فعلاقتنا لا وجود لها من الأصل، وأنا...».

قال لها: «أحب عقلك».

تجاهلت تعليقه، في محاولتها لاكتشاف سبب مجيئه لرؤيتها، واكتشاف الموضوع الذي يجب أن يناقشه معها. وفجأة، نزل عليها الوحي، فقالت: «ما زلت مدينة لك، مهما حدث. ما زلت أدين لك، دين..».

ارتسمت على وجه جيرارد ابتسامة فاتنة، لم تطمئن إليها وقال:

ـ تتكلمين عن الدين، وتتكلمين عن إيجاد وسيلة لسداده. فيما أكدت أنا لوالدتي أننا سنحضر إلى هيلمونت يوم السبت.

ـ كلانا.

أدركت ميرين أنها كانت محقة حين لم تطمئن إلى تلك الابتسامة. كما لم يكن عقلها مستعداً لتقبّل ما ظنت أنها فهمته من كلامه، فسألته:

ـ هل تقصد أنك ستذهب مع السمراء؟ أعني أنت وايزادورا..؟.

لكن النظرة الجادّة التي رمقها بها جيرارد منعتها من متابعة الكلام. وقال لها ساخراً: «هيا، هيا يا ميرين، أنت أذكى من ذلك بكثير».

ردّت عليه بثقة: «لا!».

ثم استدركت وقالت: «هل يعني ذلك.. أننا سنبيت ليلة هناك؟».

أكد لها: «نعم، سنمضي الليل هناك».

فأجابت دون تفكير: «لا، قطعاً لا».

طمأنها جيرارد: «ليس هناك ما يستدعي القلق».

ردت محتجة: «ستكون أسرتك كلها مجتمعة».

ذِكر عائلته، ذكّرها بعائلتها، وبما تدين به لجيرارد أو على الأصح ما تدين به هي شخصياً، مما جعلها تتنهد في داخلها.

هل هذا هو سبب قدوم جيرارد إلى هنا؟

ـ هل استاءت أمك جداً؟

أجابها قائلاً: «بالنسبة إلى الصورة؟ تكاد تفقد صوابها من الغضب، كما قالت إنها واثقة أنني سأخسرك إذا لم أحسّن سلوكي وتصرفاتي».

ـ هراء! أما زلت ترغب في متابعة هذه التمثيلية، والادعاء بأننا على علاقة جادّة؟

حدق جيرارد في عينيها الزرقاوين اللتين يشوبهما القلق وأجابها بهدوء وبحزم: «نعم، أريد متابعة ذلك.. أخبريني ما الذي يشغل بالك ويسبب لك القلق؟».

ثم أضاف بنبرة أكثر خشونة أجفلتها: «أنتِ لستِ على علاقة جادة بهذا الرجل الذي تخرجين معه؟».

ردت عليه بحدة: «بمقدار جدية علاقتك بايزادورا توماس».

يا الله، ما الذي أصابها؟

نظر جيرارد إليها بعدائية ليضع ثوانٍ ثم ابتسم وقال برقة: «إذاً، في هذه الحالة لا حجة لديك لعدم الذهاب معي إلى هيلمونت».

يبدو أنه لا يفكر فعلياً بايزيدورا؟ وأقرّت ميرين في سرها أن حالتها النفسية تتحسن. لكنها قالت له:

ـ بما أنني غارقة حتى أذني في هذه القضية. لكنني لست سعيدة البتة بهذا الخداع وهذه الأكاذيب يا جيرارد. ألا يمكنك أن تطلع أمك أو أختك على الحقيقة، ربما عن طريق إحدى صديقاتها أو إحدى اللواتي يؤثرن فيها؟ ألا تستطيع أن تفهمهما أنك تمضي أوقاتاً رائعة كما أنت، وأنك لا

ترغب بتغيير هذا الوضع؟.

رد عليها جيرارد: «لقد حاولت ذلك. صدقيني حاولت ذلك».

وتغيّرت نبرة صوته لتصبح أكثر رقة، وهو يغريها قائلاً: «فكري في الأمر، من زاوية أنك ستحصلين على سرير مناسب لتنامي وترتاحي».

سرير مناسب! يعني التخلّص من تلك الأريكة للبلة واحدة.

ردت عليه: «أوه، لا تقل ذلك، فهذا يلوح لي..».

ثم سكتت وارتسمت على وجهها تعابير الغم.

سألها جيرارد على الفور: «ما بك؟».

ترددت في إخباره لكنها أدركت أنّ عليها أن تفعل ذلك في مثل هذا الظرف. كما شعرت أن من واجبها الاعتراف بحقيقة الوضع. فقالت: «قد أكون مصدر إزعاج».

حدّق جيرارد فيها وسألها مستغرباً: «مصدر إزعاج؟».

ـ تنتابني أحياناً كوابيس، فأستيقظ وأنا أصرخ. وأنا لا أريد أن أزعج والديك أو أحد الضيوف.

أخفضت نظرها وهي تشعر بالارتباك لأنها اضطرت إلى إخباره بهذا الأمر. لكن عندما عادت ورفعت عينيها نحوه لم تشاهد في عينيه سوى نظرة تفهّم. وسألها إذا كانت تعاني من الكوابيس دائماً فهزّت رأسها بالنفي ثم استفهم منها بهدوء: «منذ متى تعانين من الكوابيس؟».

لم تجد ميرين أيّ صعوبة في الإجابة عن هذا السؤال: «عانيت من أول كابوس ليلة تعرضت لعملية السلب».

أخذ يدها بين يديه، وقال لها متعاطفاً: «يا عزيزتي المسكينة. هل عرضت المسألة على أحد؟».

سألته وهي تشعر للحظة بالاختناق من دفء مشاعره وطيبته الفجائية:

ـ هل تعني، طبيباً نفسياً؟ ما من داعٍ لذلك. فهي لم تعد تتكرر كما في بادىء الأمر. وما كنت لآتي على ذكر هذه المسألة على الإطلاق. لكنني على يقين من أن النوم على سرير غريب وفي بيت غير بيتي، بالإضافة إلى

توتر أعصابي، سيجعل ليلة السبت تشهد صراخي الذي ستهتز له أعمدة المنزل.

سألها: «إذاً، ستأتين معي؟».

كيف لها ألاّ تذهب معه؟ إنها تدين له بالكثير: «أنت تعلم أني سأفعل. لكن هل يمكنني الحصول على غرفة في زاوية المنزل بعيداً عن باقي الغرف؟».

قال لها مواسياً بلطف: «إن هذا الأمر يزعجك حقاً، أليس كذلك؟ اتركي الأمر لي».

وخطرت على بالها مشكلة أخرى لم تكن في الحسبان. فسألته على عجل: «لن تتوقع أمك أن ننام معاً، أو أي شيء من هذا القبيل. هل ستغفل ذلك؟».

وانفجر جيرارد ضاحكاً، ثم قال: «أوه يا ميرين! ألم أقل لك إنك فتاة متمردة؟».

أدركت أنه سيعذبها قليلاً ويتلاعب بأعصابها عندما أضاف: «ضعي خجلك العذري جانباً، لأن أمي محافظة جداً ولا ترضى بهذا النوع من السلوك».

ماذا يمكنها أن تقول؟ شعرت أن الاحمرار يغزو وجهها فطلبت منه:

ـ هل لي أن أسترد يدي، من فضلك؟

أطلق جيرارد يدها، وحُسمت المسألة. ثم انطلق بسيارته عائداً نحو بيتها. عندما نزل من سيارته ووقف إلى جانبها أمام بوابة حديقة منزلها، قال لها: «لا داعي لأن نذهب في وقت مبكر. هل أجدك جاهزة، بعد زيارة خالك أموس، إذا جئت لاصطحابك عند الساعة الثالثة بعد الظهر؟».

أعجبت ميرين به أكثر، إذ بدا أنه يعرف أن زيارة خالها مهمة بالنسبة إليها، فابتسمت له وأجابته: «هذا مناسب جداً».

ـ إلى اللقاء إذن، وكفي عن القلق.

دخلت ميرين إلى المنزل ونامت نوماً عميقاً على غير عادتها. بيد أنها

شعرت ببعض التوتر ليلة الجمعة قبل أن تأوي إلى الفراش.

انتظرت حتى صعدت ابنتا أخيها إلى الطابق العلوي، لتخبر أباها وأخاها وكارول أنها لن تبيت في المنزل ليلة الغد.

سألها روبرت: «هل ستذهبين إلى مكان جميل؟».

وقبل أن تستطيع الرد عليه أضاف أنه أراد أن يستعير سيارتها، إلاّ أنها قد تحتاجها الآن.

ـ يمكنك أخذ السيارة، لأنني لن أحتاجها.

فهم والدها المسألة فوراً: «هل سيأتي أحد ما ليأخذك بسيارته. أتمنى ألاّ تكوني ذاهبة لتمضية عطلة نهاية الأسبوع مع بيرتي ارمسترونغ! أم.. أنه جيرارد مونتغمري؟».

لم تعجبها ما حملته نبرة صوته من تلميح، فقد جعل الأمر يبدو وكأنه قذر فأقرت له: «نعم، أنا ذاهبة مع جيرارد، إنما إلى منزل والديه اللذين يقيمان حفلة عائلية».

غمزها والدها وقال: «إنك تعززين معرفتك بهم».

ـ لن أغيب إلاّ ليلة الغد.

قالت كارول وهي تبتسم لها: «اذهبي وتمتعي بوقتك يا ميرين».

ذهبت ميرين في الصباح التالي لزيارة خالها. وكانت تخشى الأسئلة التي يطرحها أحياناً، حول ما إذا كانت ستخرج لقضاء سهرة مميزة.

لكنها أخبرته أنها تعرفت إلى رجل لطيف ثم أضافت على عجل: «نحن أصدقاء فقط، وسأرافقه الليلة لحضور حفلة عشاء عائلية».

فعلّق أموس ياردلي وعيناه تلمعان: «لقد أبقيت الأمر سراً».

صححت له ميرين بسرعة: «أوه، نحن أصدقاء فقط».

ـ ما اسمه؟

ـ جيرارد، جيرارد مونتغمري.

ـ على أي حال، أنت تستحقين الأفضل مهما كان اسمه.

وأدركت ميرين من كلامه أنه يحبها بقدر ما تحبه.

تركته لتعود إلى المنزل وتغيّر ملابسها كي تكون جاهزة عندما يحضر جيرارد. كان الطقس حاراً، فاختارت بذلة صيفية من الحرير، ووضعت في حقيبة صغيرة فستان سهرة طويلاً من اللون الأزرق الغامق الذي يتماشى ولون عينيها.

كانت تضفي اللمسات الأخيرة على تسريحة شعرها عندما سمعت جيرارد يصل. وعرفت من الصراخ الذي تناهى إلى سمعها من الطابق السفلي، أن ابنتي أخيها سعيدتان جداً برؤيته. أما هي، فأقرت أن مشاعرها متضاربة.

ارتفعت معنوياتها عندما نزلت إلى الطابق السفلي ورأت عائلتها في أمان رغم الضجيج الذي يحدثونه. نظرت إلى جيرارد ووجدته يبتسم، فسألته: «هل أنت جاهز؟».

طمأنها جيرارد حالما انطلقا: «ليس هنالك ما يستدعي التوتر».

ـ هل تدعو النساء غالباً لحضور حفلات العشاء العائلية؟

فكر جيرارد في السؤال ثم أقرّ لها: «أتعرفين؟ إنها المرة الأولى!».

وبعد ذلك تبادلا الأحاديث المشوّقة والمتنوعة حتى وصلا إلى هيلمونت.

وجدت ميرين أن التوتر الذي كانت تعاني منه قد زال، بسبب سلاسة جيرارد في التعامل معها. لكن أعصابها عادت وتوترت ما إن استدارت الجاغوار نحو مدخل هيلمونت.

سألها بهدوء، وهو يقف للحظة على الممر المرصوف بالحصى:

ـ هل أنت على ما يرام؟

ردّت عليه ميرين: «تذكر فقط، عندما تتأزم الأمور أن الفكرة كانت فكرتك وليست فكرتي».

ابتسم لها جيرارد مشجعاً وقال: «حاولي فقط التظاهر بأنك تحبينني».

أجابته: «ما من مشكلة».

واستطاعت أن تبتسم بصورة طبيعية.

فحدق فيها جيرارد وتمتم: «كنت على وشك الانصياع لنزوة أخرى ومعانقتك».

التفتت إليه بوقار وأمرته بحزم: «تمالك نفسك!».

وشعرت أن دقات قلبها تتسارع عندما تحوّلت ابتسامته إلى ضحكة ناعمة.

رافقها جيرارد إلى الداخل وهو يحمل حقيبة ملابسه وحقيبتها، وسارعت أمه للترحيب بهما: «كم أنا سعيدة لرؤيتك يا ميرين».

تألقت والدته مسرورة، وانحنت لتقبلها ثم قبّلت ابنها قبل أن تقول:

- إن الأمور تسير على ما يرام. والجميع في الحديقة الخلفية، فهل ترغبان في إلقاء التحية عليهم أولاً أم تفضلان حمل حقائبكما إلى غرفة النوم؟

أجاب جيرارد بنبرة آمرة: «من الأفضل أن نذهب ونسلم عليهم».

وضع حقائبهما على الأرض وتأبط ذراع ميرين.

قدّرت ميرين أنه من الأفضل الانتهاء من هذا الأمر بسرعة وعدم تأجيله إلى وقت لاحق.

مضت الدقائق التي تلت وقد تزاحمت في رأس ميرين أسماء ووجوه العمات والأعمام وأبناء العم والأنسباء. كما تعرّفت إلى ضيفة الشرف، العمة الكبيرة أوكتافيا، وهي امرأة رائعة في الثمانين من عمرها.

قال لها جيرارد باسماً بعد أن انتهيا من الواجبات الاجتماعية وعاد بها إلى حيث تركا حقائبهما: «سنلتقي لاحقاً».

لم يُطرح عليها أيّ سؤال يستوجب إجابة كاذبة، مما جعلها تشعر بالاسترخاء. اكتشفت ميرين أن أفراد عائلته، مهذبون لدرجة تمنعهم من طرح أيّ أسئلة مباشرة ومحرجة.

- من هنا.

قادها إلى آخر الرواق متجاوزين الدرج الرئيسي الفخم الذي يؤدي إلى الطوابق العلوية وانعطفا بعد ذلك إلى رواق جانبي حيث رأت درجاً

بسيطاً أقل فخامة من الدرج الأول.

لاحظت أن هذا المنزل المشيّد في القرن الثامن عشر، قد جدّد كلياً. لم تكن غرفة النوم التي قادها إليها جيرارد واسعة جداً، لكن أثاثها كان ينمّ عن ذوق رفيع.

قال لها جيرارد: «أعتقد أنك سترتاحين هنا».

ردت ميرين: «أنا واثقة من ذلك».

ولاحظت فجأة، أن الغرفة تقع في جناح منفصل عن المنزل، فقالت برقة: «أوه يا جيرارد، لقد اختارت لي أمك هذه الغرفة خصيصاً، أليس كذلك؟».

- غرفة نومي تقع في هذا الجناح أيضاً.

ردّت عليه معتذرة: «أنا آسفة، لقد تخلّيت عن غرفة نومك المعتادة، كي لا أكون وحيدة في هذا الجناح».

فأجاب باسماً: «تطوّعت لإخلاء غرفتي مع حضور كل هؤلاء الأعمام والعمات والخالات».

استفهمت ميرين بفضول: «ماذا أخبرت أمك؟».

وغابت الابتسامة عن محياها، حين فكرت في الإزعاج الذي سببته للسيدة مونتغمري.

- وماذا كنت سأقول لها؟ لقد أخبرتها الحقيقة.

- لقد غيّرت رأيك.

- وأنت منزعجة.

- ما كان يجب أن آتي، فأمك لديها ما يكفيها من المشاغل من دون أن تتكبد عناء تدبير مكان منعزل لي.

قاطعها جيرارد: «كانت تفضل أن تخصص لك أفضل غرفة نوم في المنزل، إلا أنها اضطرت للتضحية حين بدأ الأقارب المسنون بالتأفف قليلاً».

- ضحّت بمن هم أكثر شباباً وأقدر على التحمّل!

ـ تماماً. عندما أخبرتها أنك تعرضت لحادث سلب، وتعانين من الكوابيس في الليل من جراء ذلك، ودّت أن تأتي إليك وتحتضنك حتى تشعري بالتحسن، ووجدت أن هذا الجناح هو المكان المناسب لأناشيدك الليلية.

وجعل تعبير «أناشيدك الليلية» الذي وصف به صراخها، ميرين تبتسم.

فقال لها جيرارد وهو يراها تبتسم: «هكذا أفضل».

سألته: «كنت مزعجة بعض الشيء، أليس كذلك؟».

لم يوافقها على كلامها: «لا، أبداً. أنت امرأة صادقة وحساسة وتشعين بالدفء. اضطررت في الآونة الأخيرة، إلى القيام بأمور كثيرة، تخالف قناعاتك وغريزتك. وأتمنى أن أتمكّن من تعويضك».

ـ لقد فعلت ذلك، فإعطائي ذاك المبلغ...

وما إن شرعت بالكلام حتى اختفى صوتها عندما لاحظت وجود بابين آخرين في الغرفة. أحدهما، على ما يبدو يؤدي إلى الحمام. أما الباب الآخر..

سألته: «إلى أين يؤدي هذا الباب؟».

لم يلتفت جيرارد إلى حيث أشارت. وافترضت أن لا حاجة به إلى ذلك، إذ نشأ في هذا البيت وهو يعرف كافة تفاصيله.

أجابها: «كنت أخشى أن تطرحي هذا السؤال».

ساورتها الشكوك، لكنها لم تتكلم، بل انتظرت فيما نظراتها مسمّرة عليه. فتابع قائلاً بعد لحظة: «هذا الباب يقود إلى غرفة نومي، وأخشى أنّ مفتاحه قد ضاع على مرّ السنين».

حدقت فيه ميرين للحظة، ثم سألته: «مما ترك الباب مقفلاً أو غير مقفل؟».

ردّ عليها من دون أن يحيد نظراته عنها: «غير مقفل».

حبست ميرين أنفاسها، فهي تعرف أن علاقتها بجيرارد أفلاطونية،

وتعرف أيضاً أنها وسيلته ليحافظ على وضعه كعازب. لكن يبدو أنها لا تجيد التصرف في بعض المواقف، حتى وإن بلغت الثانية والعشرين من عمرها.

اقتنعت ميرين أنّ ما من داعٍ للقلق، وأن عليها أن تحسم هذه المسألة في الحال، حتى وإن تلوّى جيرارد من شدّة الضحك.

قالت له وهي تغصّ بين الجملة والأخرى: «أنت لن تحاول...؟ أنت.. تعرف عن هذه المواضيع أكثر مني. أنت أعني... هل ستحاول..؟».

شجعها على الاستمرار في الكلام: «أحاول ماذا؟».

بدا لها أنه يتلاعب بأعصابها، فاستاءت لذلك.

ـ هل تعدني وعد شرف بألاّ تأتي بأي.. تصرفات غير لائقة؟

ـ تصرفات غير لائقة! أوه، يا صغيرتي ميرين، أنت غير معقولة.

لم يكن ما قاله الجواب الذي تنتظره، فألحّت عليه بتصلب: «أنا أعرف ذلك، ولكن ما أحتاج إلى معرفته..».

فهم ما تقصده، فقال لها وقد أصبحت تعابير وجهه صارمة كتعابير وجهها: «أنت جادة، وأنا لم أكن لطيفاً معك. ثقي أنّ فكرة إغوائك لم تطرأ على ذهني قط. فلم لا تطردين هذه الأفكار من رأسك؟».

شعرت أن الاحمرار قد زحف إلى وجهها فيما تابع جيرارد طمأنتها وقد سحره احمرار بشرتها: «استرخي، لن يحدث ذلك أبداً».

ـ حسناً، شكراً جزيلاً، ومتى سيقدّم العشاء؟

ردّ عليها ببشاشة: «سننزل إلى غرفة الطعام عند الساعة السابعة. هل ستكونين على ما يرام، إذا تركتك؟».

ـ سأكون على ما يرام حتى وإن لم تعد قط! يا للسماء! نعم، سأكون على ما يرام.

وشعرت بالسرور عندما غادر غرفتها وهو يلقي عليها نظرة حادة.

سمعت ميرين تحركاته في الغرفة المجاورة. ونسيت أن تشكره على

خروجه من غرفتها من الباب المؤدي إلى الدرج، بدلاً من استخدام الباب المشترك بين الغرفتين، وكأنه يقول لها إنه يعتبر هذا الباب مقفلاً، ولن يستعمله أبداً.

فتحت حقيبة ملابسها الصغيرة، وقد غلبتها روح التمرّد. من يظن نفسه؟ هل يعتقد أنها ستصدّق أن فكرة إغوائها لم تخطر على باله، وأن هذا الأمر لن يحدث أبداً. بإمكانه بسهولة.. قطعت ميرين حبل أفكارها. ما الذي أصابها بحق السماء؟ وشعرت بفورة غضب لأنها كانت تعد نفسها للصراخ ملءَ رئتيها فيما لو حاول جيرارد إغواءها، في حين أوضح هو لها أنها لا تجذبه أبداً.

هيا، انسي هذا الأمر. راحت تتأمل الغرفة، والسرير الرائع، فشعرت أن معنوياتها قد ارتفعت. غرفة نوم لها وحدها، وسرير. ستنام وإن لليلة واحدة على سرير مناسب. وفي حركة لا واعية خلعت حذاءَها بسرعة، واستلقت على السرير. يا لها من نعومة، نعومة رائعة لا تشوبها شائبة!

نهضت ميرين عن السرير خشية أن تستغرق في النوم فلا تكون جاهزة عند الساعة السابعة. دخلت إلى الحمام، وبعد عشر دقائق كانت مستلقية في المغطس الفاخر.

واسترخت أعصابها، فلم تعد قلقة حيال العشاء والتمثيلية التي يلعبانها هي وجيرارد.

وفي حين، كانت تشعر بعدم الرضى لخداعها السيدة مونتغمري، فيما هي تستمتع بضيافتها، عجزت ميرين عن استبعاد فكرة أنها تبالغ. وبعد الإمعان في التفكير تذكرت أن أخاها كان يأتي بعدد من صديقاته إلى المنزل قبل زواجه من كارول. وهكذا لا بدّ أن السيدة مونتغمري ستغفر لها، حالما تنقضي هذه السنة ويكفّ جيرارد عن ذكرها، ويصطحب معه فتاة أخرى ليعرّفها على عائلته.

شعرت ميرين بشيء من الاكتئاب عندما خطرت لها الفكرة الأخيرة. لكنها أبعدت هذه الأفكار لاحقاً وسرّحت شعرها المائل إلى الحمرة الذي

تنخلله خصلات شقراء، وهي تتساءل عما إذا كانت تبالغ، خاصة وأن جيرارد يتقبّل مسألة هذه الخديعة بخفة بالغة.

وبدءاً من هذه اللحظة، قررت ميرين أن تعود كما كانت منذ سنة مضت، قبل أن تتوفى أمها ويبدأ عالمها كله بالتداعي.

ارتدت ملابسها وأصبحت جاهزة عند الساعة السابعة إلا خمس دقائق، وكان شعرها اللامع منسدلاً على كتفيها. وأقرّت لنفسها أنها بدأت تشعر بالغبطة، ولم تضطر إلى اصطناع الابتسام عندما قرع جيرارد باب غرفتها.

فتحت له الباب، فوقف جيرارد في مكانه يتأملها بإعجاب. لهذا لم تستطع إلاّ أن تلاحظ مدى وسامته في بذلة السهرة. قالت له بخفة، فيما كانت نظراته تتأمل قوامها لتعود وتحدق في عينيها الزرقاوين الضاحكتين:

ـ لا بأس بمظهرك أيضاً.

لاحظت أنه لوى شفتيه، وفكرت للحظة في أنها على وشك الخضوع لإحدى نزواته المعتادة. لكن عوضاً عن ذلك تراجع خطوة، وظنت ميرين أنه تذكر قلقها حيال «إقدامه على تصرفات غير لائقة» وشعرت بمسحة من الخيبة. الخيبة؟ هيا! تمالكي نفسك، يا فتاة!

قال بعد أن خرجت من الغرفة وأخذا يسيران في الرواق: «هل سكن روعك؟».

اعتذرت منه: «أنا آسفة، فأنت لم تعتد على النساء غير المتجاوبات، أليس كذلك؟».

سألها بحدة هازلة: «ومن قال ذلك؟».

ضحكت حينها، كما ضحكت كثيراً أثناء السهرة.

كانت علاقة أفراد عائلته ببعضهم وثيقة، ومميزة نوعاً ما، وشعرت بالزهو لوجودها بينهم. عاملها الجميع بحرارة ولطف مما جعلها تشعر بأنها مرحب بها بينهم. أما فرانكلين بلايك، ابن باربرا عمة جيرارد، وهو في مثل سن ابن خاله، فقد خصّها بالاهتمام والرعاية.

لم يكن من الرجال الذين يمكن لامرأة عاقلة أن تفكر في إقامة علاقة جدية معه، إذ تزوج وطلق مرتين، إنما كان مسلياً جداً، وقد أضحكها كثيراً.

كان العشاء رائعاً، بوجود عميدة العائلة العمة أوكتافيا التي لم يبدُ عليها أي إرهاق أو إعياء رغم سنواتها الثمانين.

ومع ذلك، عند الساعة العاشرة والنصف، وبعد انتقال الجميع إلى غرفة الاستقبال، رأت أن الوقت قد حان للخلود إلى الفراش. ورافقتها إحدى عمات جيرارد، لكن الآخرين تابعوا السهرة.

كانت ميرين تتحدث إلى فرانكلين بلايك، فيما كان جيرارد يحضر لعمته باربرا بعض العصير، عندما راحت تتساءل عما إذا كان عليها أن تنسحب، لأن الحفلة عائلية.

اقترب جيرارد منهما وقال لفرانكلين: «تريد أمك أن تتحدث إليك».

سألت ميرين جيرارد بعد ذهاب فرانكلين: «هل تعتقد أنّ عليّ أن أنسحب الآن؟».

رد عليها جيرارد بصوت خافت وبنبرة لئيمة: «لا تقولي لي إنك اكتفيت من ابن عمتي فرانكلين».

فردت له الكيل كيلين: «حتى هذه اللحظة.. كنت أستمتع بوقتي».

- إذن، أعذريني لأنني تدخّلت!

وابتعد عنها بصورة فجائية. فقررت ميرين على الفور أن تنسحب لتخلد إلى النوم.

ألقت نظرة نحو مضيفتها، الغارقة في نقاش مع إحدى شقيقاتها، ورأت جيرارد ينضم إلى ابنة خالته آنا ويبادلها الحديث، فقدّرت أن أحداً لن يلاحظ انسحابها.

دخلت ميرين غرفتها واغتسلت، وعاد الشعور بالتمرد على جيرارد مونتغمري يتملكها من جديد.

بعد أن هدأت أعصابها، شعرت ثانية بالسعادة لكن سيسرها أن يحلّ

يوم الغد لتعود إلى بيتها. وليجرؤ بعد ذلك جيرارد مونتغمري على أن يطلب منها مرافقته إلى هنا.

سمعت وقع خطوات على الدرج، فسارعت إلى إطفاء المصباح الموضوع إلى جانب السرير، لتغرق غرفتها في الظلام. توقفت الخطوات عند باب غرفتها، وسمعت قرعاً خفيفاً على الباب الخشبي، ثم سمعت صوت جيرارد يناديها. كانت تشعر بالاستياء منه، لذا لم تجبه. لن يغامر بالدخول، وهو الذي قال إنه لن يغويها أبداً.

لم يدخل. وبعد لحظات قليلة سمعت وقع خطواته تبتعد. لم تستطع أن تتكهن ما يريده منها، ولم تهتم للأمر. لقد حضرت حفلة العشاء لأنه لم يكن أمامها من خيارات أخرى. أغمضت عينيها، وراحت كلمة «خيارات» تدور في عقلها، لو أنها لم تتعرض للسلب.. لا، لا تريد التفكير في هذا الموضوع.

لا بد أن جيرارد عاد إلى الطابق السفلي. أدركت ذلك لأنها سمعته يصعد الدرج ثانية بعد ساعتين وكانت لا تزال مستيقظة. هذه المرة، لم يتوقف عند باب غرفتها، بل سمعته يتمشّى في غرفته وتمنت لو تتمكن من الاستفادة من هذا السرير المريح لتنام ملء جفنيها.

ولكن الأقدار غلبتها ثانية. لقد كانت سعيدة، لكنها لم تعد كذلك الآن، وهو السبب في ذلك. لو لم تتعرض للسلب لما عذبها افتقارها للخيارات، حين ستضطر إلى إخبار ذلك الوحش الراقد في الغرفة المجاورة أنها لن ترضى بمرافقته إلى هيلمونت ثانية. لكنها لسوء الحظ، لا تملك حرية الاختيار، لأنها تعرّضت للسلب، والضرب. لقد تخلت عن خاتم أمها، الخاتم الذي ورثته عن جدتها. كما ورط أخوها روبرت نفسه في المتاعب، ولو لم يعطها جيرارد الألفي جنيه، لغرق روبرت وكارول وأولادهما في المشاكل.

حاولت ميرين طرد هذه الأفكار من رأسها، لكن النعاس غلبها واستسلمت لسلطان النوم.

نامت نوماً خالياً من الأحلام، واستيقظت مع بزوغ الفجر، كما اعتادت مؤخراً. فتحت ميرين عينيها وارتسمت على وجهها ابتسامة رضا. فلقد بدت لها آخر مرة نامت فيها على سرير وكأنها تعود إلى سنوات سحيقة. إنه سرير رائع، فتمتعي به يا فتاة، لأن الحركة لن تدب في المنزل قبل انقضاء دهر.

ولكن، راحت تتعرض للضرب. شخص ما يريد أن يسلبها غرضاً لا تريد التخلي عنه. فتعرضت للضرب ثانية وأخذت تصرخ.. إنها تقع.. أحدهم يلمسها. ارتفع صوت صراخها أكثر، فاستيقظت وهي تكاد تختنق وقد انقطعت أنفاسها. هبّت جالسة في سريرها، وهي مرتاعة. فتحت عينيها وراحت تستعيد وعيها تدريجياً، فرأت جيرارد في الغرفة معها. كان جالساً على حافة السرير، ولاحظت أنه يمسك بها. لعله يحاول أن يوقظها من أهوال حلمها.

حدّقت في عينيه الرماديتين الحنونتين وهي عاجزة عن الكلام، وسمعته يتمتم قائلاً: «يا حبيبتي المسكينة».

ضمها إليه أكثر، فارتمت بين ذراعيه دون وعي منها.

شعرت للحظات بأنها منهكة ومغلوب على أمرها مما أعجزها عن النطق. لم تستغرب أن تجلس في سريرها مستندة إلى صدر رجل عند الساعة الخامسة من صباح يوم الأحد. وبدا لها الأمر صائباً نسبياً لأن الرجل الذي أحاطها بذراعيه هو جيرارد.

لم تشعر ميرين برغبة في الابتعاد عنه، فسألته ورأسها لا يزال مستنداً إلى صدره: «هل أحدثت الكثير من الجلبة؟».

مرر يده على شعرها برقة وسألها: «هلاّ سمحت لي بأن أساعدك؟».

استنتجت من سؤاله أن صراخها شقّ عباب السماء. فابتعدت عنه، واستغربت عدم رغبتها في ذلك. أبعد ذراعيه عنها، فودّت لو تعودا كما كانتا، تلفان كتفيها. ردت عليه مؤكدة: «هذا ليس ضرورياً، شكراً على أيّ حال.. إن الكوابيس التي تراودني حالياً أقل سوءاً مما كانت عليه».

ـ أي أنها أفضل؟

ردت وهي تبتسم له: «أؤكد لك ذلك».

وخطر لها أن جيرارد رائع، عندما مد ذراعيه وضمّها إليه ثانية، ليظهر تعاطفه معها. لكنها ابتعدت عنه خلافاً لما أرادته غرائزها ومشاعرها.

قالت له معتذرة: «أنا آسفة، لأنني أيقظتك من النوم».

ـ لم أكن نائماً، كنت أقرأ كتاباً.

لم يكن نائماً؟ لقد تحدّثا عن مواضيع شتى إنما لم يتطرقا إلى هذا الموضوع، فاستفهمت منه: «ألا تحتاج إلى الكثير من النوم؟».

ردّ عليها: «لا، إنما أنت بحاجة إلى ذلك. بل أنت بحاجة إلى الكثير من النوم لتعويض ما ينقصك».

ـ هل أبدو متعبة جداً؟

يا للحسرة! ما كان عليها أن تقول ذلك؟ كانا يتبادلان الأحاديث الشخصية، لكن بصورة رسمية. فما الذي فعلته الآن، سوى دفعه إلى التدخل في أمورها الشخصية؟

تأمل جيرارد وجهها، وقال: «في الواقع، يا آنسة شبرد، لا شك أنك المرأة الوحيدة التي يمكنها البقاء أسبوعاً من غير نوم، ومع ذلك تبقى جميلة لا بل رائعة».

طرفت ميرين عينيها ونظرت إليه. كانت نظراته ثابتة، وبدا لها صادقاً فردّت عليه باللغة الفرنسية: «أنا؟».

ـ نعم، أنت، ألا تعرفين ذلك؟

هزت رأسها نفياً بينما أخذت نبضات قلبها تتسارع فجأة، لأن جيرارد يراها جميلة، لا، بل رائعة.

ارتسمت ابتسامة في مكان ما في داخلها، وشقت طريقها إلى فمها. لاحظت أن نظرات جيرارد تحوّلت إلى ابتسامتها ثم قال: «تبدين أكثر سعادة. هل ترغبين في أن أبقى إلى جانبك أكثر، أم أنك تفضلين العودة إلى النوم؟».

كذبت عليه: «أعتقد أنني سأعود إلى النوم».

أرادت أن يبقى معها لمدة أطول. لكن وبالرغم من أنها تكره فكرة اللجوء إلى الكذب، استلقت على السرير، لتؤكد ما قالته.

انبرى جيرارد يغطيها، فلمست يده كتفيها عرضياً. فحدقت فيه، وقد أجفلتها الرعشة التي سرت في داخلها.

اعتذر جيرارد منها حالما لاحظ تعابير وجهها: «أنا آسف، لم أكن على وشك القيام «بتصرفات غير لائقة»، أقسم لك».

ضحكت ميرين، وطمأنته قائلة: «أعرف ذلك».

ابتسم لها جيرارد: «سيكون زوجك رجلاً محظوظاً جداً».

مال عليها وطبع قبلة رقيقة على جبينها، ثم غادر الغرفة عبر الباب المشترك الذي استخدمه بلا شك عندما هرع لمساعدتها بعد سماع صراخها.

بقيت ميرين مستيقظة لفترة طويلة بعد ذهابه. وأدركت أن إعجابها به قد ازداد. لم يفترقا الليلة الماضية على وفاق، لكنه لم يتردد عندما تناهى إليه صراخها، فهرع إليها ونسي خلافهما.

اعترفت لنفسها أنها نسيت غضبها كلياً وهي بين ذراعيه. في الواقع، بدا لها أنها نسيت كل شيء آخر حينذاك.

استحمت ميرين وارتدت ملابسها، واكتشفت أنها غير جاهزة لمواجهته ثانية، وأنها تشعر بالخجل من مقابلته. فلم تستطع أن تفهم شعورها هذا.

كان الطقس جميلاً ومشمساً هذا الصباح، فقررت القيام بنزهة سيراً على الأقدام.

لم تلتقِ أحداً عندما خرجت من المنزل، فالوقت لا يزال مبكراً. حاولت ميرين جهدها أن تبعد كافة الأفكار عن ذهنها وهي تتنزه، لكنها وجدت صعوبة بالغة في ذلك. وفي حين اعتقدت أن مشاكل روبرت وكارول، التي يبدو أنها تطبق عليهما يوماً بعد يوم، ستأخذ الحيّز الأكبر

من أفكارها، تبيّن لها أنها مخطئة، إذ شغل جيرارد تفكيرها.

أمضت فترة من الوقت خارج المنزل، وترددت في العودة إليه.

إنما يجب أن تكون حاضرة عند تقديم طعام الفطور، فلعلها لم تكن راغبة في المجيء إلى هيلمونت ولكن عليها أن تتقيد بأصول الضيافة.

كادت ميرين تصل إلى مدخل البيت، عندما فتح الباب فشعرت بقلبها يتخبط بين ضلوعها، دون أن تجد سبباً لذلك. لكن دقات قلبها المتسارعة هدأت على الفور حين أدركت أن الرجل الذي يقترب منها ليس جيرارد، بل ابن عمته، فرانكلين.

كان بإمكانها أن تكتفي بإلقاء التحية عليه، إنما بدا أن فرانكلين بلايك يودّ التحدث إليها. فقال لها معاتباً وبطريقة مبالغ فيها: «لم يتسنَّ لي أن ألقي عليك تحية المساء ليلة أمس».

ابتسمت له وقالت: «كانت سهرة رائعة، أليس كذلك؟».

أجابها من دون تفكير: «لقد أعدّت خصيصاً لك».

فانهمته: «أنت مُغازل لعوب».

ردّ عليها: «في الواقع، أنا مأخوذ بك يا عزيزتي ميرين».

للوهلة الأولى لم تصدّق ما سمعته، فقالت: «أرجو أن تشفى قريباً».

ـ بصراحة...؟

قاطعت سؤاله مستفهمة: «نعم؟».

سألها بحشرية: «أنتِ وجيرارد.. ما مدى جدية العلاقة بينكما؟».

التزمت ميرين الحذر. فإن قالت له، إن الأمر ليس جدياً، فسيخبر باقي أفراد الأسرة؟ ترى ما هو الجواب الذي يريده جيرارد؟ واضطرت للمراوغة فقالت: «لِمَ تريد أن تعرف؟».

ـ لأنني أريد أن أخرج معك، وأريد أن..

قاطعته قبل أن يستطرد أكثر: «أنا آسفة».

ـ هل تعنين بكلمة آسفة.. أنني لا أملك أيّ فرصة؟

ردّت عليه ميرين بابتسامة تطيّب خاطره: «أنت رجل جذاب وساحر،

لكنني مخطوبة».

فما كان من فرانكلين إلاّ أن أمسك بيدها وطبع قبلة عليها ثم قال:

ـ قدري أن أكون دائماً إشبين العريس.

لم تجد ميرين ما يدعوه للشكوى، وهو الذي تزوج مرتين.

سحبت يدها من يده، وابتسمت له ابتسامة أخرى قبل أن تبتعد عنه وتتجه نحو البيت. لم تقطع مسافة طويلة، إذ انفتح الباب ثانية، وخرج منه جيرارد والشرر يتطاير من عينيه. لقد وقع أحدهم في ورطة!

وكانت الشخص المعني، لأن جيرارد أمسك بذراعها وأدارها نحوه مطالباً إياها بتفسير: «بمن تظنين أنك تتلاعبين؟».

أبت ميرين أن تخضع للتخويف والتهويل، فما الذي فعلته بحق السماء؟ قالت: «لم يكن في نيتي أن أفعل ذلك».

ـ وأنا لم يكن في نيتي أن أبدو مغفلاً.

سألته وقد فاجأها رده: «هل تقصدني بكلامك؟ ما الذي فعلته؟».

فردّ عليها بخشونة: «لقد فعلت ما فيه الكفاية. أود أن أعلمك أن معظم أفراد العائلة موجودون في غرفة الاستقبال، وقد شاهدوك من المقاعد الأمامية وأنت تغازلين ابن عمتي».

ـ أغازل! تمهل! قد يكون..

ـ بم تصفين تشابك أيديكما والابتسام له وكأنك واقعة تحت سحره، من دون..

ـ تشابك أيدينا؟!!

تجاهلها جيرارد، الذي بقيت تعابير وجهه جليدية. وذكرها قائلاً:

ـ أنت هنا، معي وليس معه. أنت هنا لمصلحتي وليس لمصلحته.

تابع صبّ جام غضبه عليها فيما كانت ميرين تحدّق فيه مذهولة، وتفكر في أنه يبالغ. قال: «لا شك أن أمي، وعماتي وأختي والآخرين قد شاهدوك تبتسمين بدلال فيما كان فرانكلين يقبّل يدك، أنت..».

بدأت نيران غضب ميرين تضطرم. يبدو أنها لن تفوز مهما فعلت،

فقاطعته بنزق: «هل ما زالوا ينظرون إلى هذه الناحية؟».

ألقى نظرة سريعة وغاضبة من فوق كتفها إلى النوافذ ثم ردّ عليها بحدة: «بكل حرص واهتمام».

لم تضف أي كلمة أخرى، بل تقدمت منه خطوة بدافع نزوة ومن دون تفكير عانقته بشوق وشغف. وحين شعرت بيدي جيرارد تمسكان بذراعيها، راح قلبها يخفق بشدة، لكنها أفلتته، وهي تشعر بدوار، وابتعدت عنه قليلاً. حدّقت فيه بارتباك، فلاحظت أن تصرفها قد أدهشه وأربكه أيضاً. استعاد رباطة جأشه، بينما شعرت أنها لن تتمكن من استعادة رباطة جأشها أبداً. فقد أدركت، في تلك اللحظة بالذات، أنها وقعت في حبه!

نظر جيرارد إلى تعابير وجهها، وقال بتمهل وهو يشدّها نحوه:

ـ حسناً، إذا كنت ستتصرفين على هذا النحو..

لكن ميرين تداركت الأمر، واستجمعت ما تبقى لديها من عقل وشجاعة لتقول له: «تمالك نفسك يا مونتغمري، فالتمادي أكثر، سيجعل عماتك وخالاتك يهرعن إلى خزائنهن لاختيار أكثر ملابسهن أناقة لحضور حفل الزفاف!».

ابتسمت له فبادلها الابتسام، وأصبح غضبه طي النسيان. سقطت يداه إلى جانبي جسمه وردّ عليها: «تعرفين فعلاً يا آنسة شبرد كيف تهدّئين غضب الرجل.. لعلنا فعلنا ما فيه الكفاية».

بل يمكنها أن تذهب أبعد من ذلك! بقيت ميرين مذهولة من غباوتها. كل ما يسعى إليه جيرارد هو إقناع أمه وأخته أنهما على علاقة جادة كي يبعدهما عنه. وماذا فعلت هي في المقابل؟ لقد تمادت ووقعت في حبه.

***

٥ ـ عاصفة في القلب

بعد اكتشافها مشاعرها الجديدة، شعرت ميرين أن الساعات التي تفصلهما عن موعد مغادرة هيلمونت، لا نهاية لها. أحست بحاجة ملحّة للاختلاء بنفسها في مكان ما؛ لكنها لا ترغب أبداً في أن يأتي جيرارد بحثاً عنها ليسألها عما يزعجها.

وأدركت أيضاً أنها لن تحصل على أيّ خلوة عندما تعود إلى منزلها. ليس قبل أن يخلد الجميع للنوم، على أي حال.

وهكذا، صممت على ألاّ تدع أحداً يكتشف الورطة التي زجّت نفسها فيها من جراء إقامتها في هيلمونت. بيد أنها أدركت أن مشاعرها نحو جيرارد وحبها كان ليطفو في أيّ مكان وفي أيّ وقت. وعندما أمعنت التفكير في الأمر، وجدت أن هنالك مؤشرات عدة لحدوث ذلك.

لكن لم يكن لديها وقت كافٍ للتفكير في هذه المسألة، إذ اضطرت للاختلاط بأقرباء جيرارد والابتسام والتظاهر بالسعادة. وكتمت مشاعرها، وأخفت آثار الصدمة التي هزتها من الصميم.

دعاها والد جيرارد بعد تناول طعام الفطور: «تعالي معي لمشاهدة الأرانب التي أربيها».

نهرت هيلين مونتغمري زوجها: «ميرين ليست مهتمة بقطيعك!».

أجابها بنبرة هادئة ولطيفة: «هما اثنان فقط».

وقاد ميرين خارج البيت، وعبر الحقل إلى مزرعة الأرانب.

خرج أرنبان من ملجئهما، فهرول إليهما يلاعبهما. وفيما كان ادوارد

مونتغمري يداعب هذا الزوج الممتاز من الأرانب، أدركت ميرين أنهما سيموتان بسبب التقدم في العمر، ولن يتحولا أبداً إلى وجبة طعام.

لم يكتف ادوارد مونتغمري بالتحدث إلى الأرانب، بل استفهم من ميرين عن عائلتها وعن عملها، فيما كانا يراقبان الأرنبين.

عندما فرغت من الكلام سارا عبر الحقول حتى وصلا إلى غدير كبير، يقع ضمن أملاكه، تسبح في مياهه بعض البجعات. كان المكان هادئاً رائعاً، وأخذا يتحادثان في مختلف المواضيع، وبدا أن والد جيرارد سعيد بالبقاء هناك لساعة أخرى. لكنه نظر إلى ساعته فجأة، وقال: «ويحي! لقد احتجزتك بعيداً عن جيرارد لفترة طويلة جداً. ولا بد أنه يبحث عنك الآن».

عادا أدراجهما إلى المنزل، لكن ميرين عرفت أن جيرارد لن يبحث عنها، فهو لا يهتم لأمرها بشكل خاص، كما لا بد أنه من طلب من والده التحدث إليها.

تركها كل هذا حائرة، تساورها الشكوك عما إذا كانت ترغب في التحدّث إلى جيرارد. لكن فيما كانت تدخل المنزل مع والده، خرج جيرارد من غرفة الاستقبال، واعترفت لنفسها أن ابتعادها عنه لم يكن السبب في الخجل المفاجيء وغير المتوقع الذي تملّكها.. إنها تحبه فعلاً، وأخذ قلبها يخفق بشدة لمجرد رؤيته. إن الحب الذي تحمله بين ضلوعها ليس وهماً من محض خيالها.

قال لها بسلاسة: «ها أنت هنا، ظننت أنك تهت».

غادرا هيلمونت بعد تناول طعام الغداء بوقت قصير، وقالت لها هيلين مونتغمري مودّعة: «هل ستأتين لزيارتنا مرة ثانية يا ميرين؟».

بِمَ يمكن أن تجيبها؟ ابتسمت لها قبل أن يتجها إلى سيارة الجاغوار، وقالت: «سيكون ذلك من دواعي سروري».

التزما الصمت خلال رحلة العودة. فقد أدركت أنها تحبه، وخشيت أن تتلفظ بأي كلمة غير مناسبة، تجعل هذا الرجل الماكر، الجالس إلى

جانبها يكشف سرها. أملت أن تكون هذه آخر مناسبة تجتمع فيها به. وأحست، في الوقت ذاته، بقلبها يعتصر لهذه الفكرة، مما يشكّل برهاناً على أنها لا تتمنى ذلك فعلاً.

بدا جيرارد غارقاً في أفكاره، إذ بقي صامتاً. إلاّ أنه سألها عما إذا أمضت وقتاً مريحاً في هيلمونت.

شرعت تقول: «أعرف أنه ليس من المفترض بي أن أستمتع به..».

فقاطعها قائلاً بدهشة: «من أين جئت بهذه الفكرة الغريبة؟».

ـ كما كنت أقول، لم أكن أتوقع أن أستمتع بهذه الزيارة، بسبب مسألة الخداع وما إلى ذلك. لكني استمتعت بها.

رمقته بنظرة سريعة فلاحظت أنه يبدو راضياً.

سألها: «هل أعجبتك عائلتي؟».

أجابته: «إنها رائعة وممتازة».

واعتقدت أن الموضوع قد انتهى. لكن حين التفتت إليه ثانية، لاحظت أن البسمة فارقت وجهه فيما كان يسألها معلقاً: «وخاصة ابن عمتي؟».

عرفت ميرين أنه يشير إلى فرانكلين، ابن عمته الماجن، فردت برقة:

ـ أنا امرأة محبية إلى القلب.

حاولت تغيير الحديث فرمقها بنظرة جانبية حادة.

وساد الصمت من جديد، وبالكاد تبادلا بضع كلمات حتى توقفت سيارة الجاغوار أمام منزلها. نزل من السيارة وشعرت فجأة بأنها لن تراه ثانية، فأرادت أن تؤجّل لحظة الفراق. ودّت لو تدعوه للدخول لكنها تذكرت أنّ البيت سيكون في حالة فوضى عارمة. كما لن يكونا وحيدين، لأن كيتي وكويني ستحاولان لفت انتباهه.

فما كان منها إلاّ أن ابتسمت له، ومدّت يدها لتأخذ منه حقيبتها التي أخرجها من صندوق السيارة وقالت له من غير تكلف: «إلى أن نلتقي ثانية».

وقف جيرارد في مكانه يحدق فيها فخفق قلبها بسرعة، ثم راح يتخبط بين ضلوعها وجمدت في مكانها، حين انحنى وطبع قبلة رقيقة على خدها. بدا وكأنه يقبّل إحدى عماته المسنات. حيّاها بنعومة وكأنها عميدة العائلة العجوز: «اعتني بنفسك».

أشاحت بوجهها بعيداً عنه بتمرد، واغرورقت عيناها بالدموع، قبل أن تفتح باب الحديقة. لم تلتفت إلى الوراء، وتناهى إلى مسمعها صوت السيارة تنطلق قبل أن تفتح باب منزلها الخلفي.

سرّت ميرين عندما وجدت المطبخ متسخاً والبيت في حالة فوضى عارمة، لأنها كانت بحاجة إلى ما يشغلها كلياً. لا تريد التفكير في حبها لجيرارد مونتغمري، لأن هذا الأخير لا يريد حبها، ولا حب أيّ امرأة أخرى. وقد أشار إلى ذلك بكل وضوح. عجزت ميرين عن تمالك نفسها وأعصابها بسهولة. لقد شغل جيرارد تفكيرها من قبل، أما الآن فلم يحتل تفكيرها سواه. كما أدركت عدم جدوى محاولاتها لطرده من عقلها وقلبها. حاولت مراراً وتكراراً أن تسترجع الأسباب التي دفعتها إلى الوقوع في حبه، لكن دون جدوى. لقد عرفته قاسياً وغاضباً، لكنها اختبرت أيضاً حنانه وعطفه. إن مبلغ الألفي جنيه أنقذ عائلتها من ورطة كبرى، ولعله مبلغ تافه بالنسبة إليه، إنما لم يكن هناك أيّ داعٍ لكي يقرضها إيّاه، وهو لا يعرفها. وقد أظهر حنانه وعطفه صباح يوم الأحد الفائت، حين استفاقت صارخة بسبب الكابوس. لكن كيف تفسر ما حدث ذاك الصباح حين أمسكت به وعانقته؟

ما الذي دهاها؟ لم يكن لدى ميرين أيّ تفسير. لكنها تذكّرت ما اعتادت أن تقوله أمها لها، عن أنها قد تتصرف بغرابة في بعض الأحيان. ولعلها فهمت الآن ما كانت أمها تعنيه بذلك.

لكن ذاك العناق كان نقطة الانطلاق. إذ أدركت من بعده أن حياتها لن تعود كما كانت أبداً. لقد شكل البداية لعملية تساؤل مستمرة. ماذا يفعل جيرارد في هذه اللحظة؟ وشعور بالغيرة القاتلة.. مع من يمضي وقته؟

واسترجعت في ذاكرتها، أنها اختبرت الغيرة من قبل عندما أصابها الغثيان لرؤية صورته مع ايزادورا توماس، لكنها لم تستطع حينها أن تجد الكلمة المناسبة التي تصف شعورها.

عادت ميرين تلك الليلة إلى المنزل، فحضّرت الطعام ونظفت المنزل وأشرفت على تسريح شعر ابنتي أخيها وتنظيف أسنانهما، كما حصلت على نصيبها من حمل الرضيع ساويل فيما كانت كارول تبذل جهدها للقيام بواجباتها. وبدا أن روبرت يعرقل الأمور أكثر مما يمد يد العون. كما بدا أن كلا الرجلين غير مكترث بالبحث عن عمل جديد، مما جعل مدخول ميرين يعاني الأمرّين ويرزح تحت عبء ثقيل.

عاودتها فكرة الانتقال إلى شقة مستقلة ووجدتها مغرية. لكنها عرفت أنها لن تتمكن من ترك المنزل والتخلي عن العائلة، في حين أن زوجة أخيها تعاني الأمرّين للقيام بواجباتها.

فرحت ميرين عندما حل مساء يوم الجمعة، والتقت بيرتي ارمسترونغ وتبادلت معه بعض الأحاديث. لم ترَ جيرارد منذ افتراقها عنه يوم الأحد، وأخذت حياتها تعود مرة أخرى إلى وتيرتها العادية المملة، وعادت هي تغرق في فراغ قاتل.

عادت السعادة تغمرها صباح يوم السبت عندما ذهبت لزيارة خالها. قالت له حين وصلت: «لقد نما العشب في حديقتك».

فرد عليها: «وأنت أكثر شباباً مني».

ضحكت. كان خالها رجلاً فريداً من نوعه، ولن يضيرها أن تتأخر في العودة أكثر من المعتاد. أعدّت القهوة أولاً، ثم تسلمت زمام الأمور في المطبخ بعد أن جزّت العشب في الحديقة الأمامية. وأمضت لحظات سعيدة في التحدث إلى خالها في شتى المواضيع التي خطرت على بالها.

وبالرغم من أن خالها هو الشخص الوحيد الذي تستطيع أن تأتمنه على أسرارها، لم تخبره عن حبها لجيرارد.

لكن جيرارد شغل تفكيرها طوال الوقت الذي أمضته في جز العشب

في حديقة خالها الأمامية. وحالما انتهت من عملية جز العشب أطفأت محرك الآلة واستقامت، فشاهدت سيارة جاغوار تقترب، وعلمت أنها سيارته!

عندما تأكدت من أنه جيرارد فعلاً وتخبط قلبها بين ضلوعها وتسارعت دقاته بصورة جنونية، شلّ تفكيرها وتسمرت في مكانها. راحت تحدق مذهولة بالسيارة التي توقفت أمام كوخ خالها.

كانت لا تزال جامدة من دون حراك عندما نزل جيرارد بقامته المديدة من السيارة واتجه نحو بوابة الحديقة. وبعد أن اجتازها، وقف في الممر، سعيداً بالبقاء في مكانه، يتأمل بإعجاب ساقيها الطويلتين في السروال القصير. استعادت ميرين صوتها فجأة.

فسألته وهي تشعر أن عالمها لم يعد كئيباً: «هل من مشكلة، يا سيد مونتغمري؟».

نقل نظراته إلى وجهها وأنّبها باستهزاء: «صباح الخير يا ميرين، كيف حالك؟».

ومع ذلك ما زالت تحبه. ألقت نظرة سريعة على ساعة يدها وقالت:

ـ أستطيع أن أتخيّل حالك، و.. الساعة الآن الثانية عشرة وخمس دقائق.

ـ خطر في بالي.. بما أنك لا تحبين الكذب، وأعترف بأنني لا أميل إلى ذلك أيضاً، أن آتي لزيارتك. وهكذا، أستطيع أن أقول لأمي اللجوج إننا أمضينا بعض الوقت معاً اليوم، دون أن أكذب عليها.

ابتسم لها، فشعرت بقلبها يذوب لشدة حبها له.

ظهرت على وجه ميرين ابتسامة خفيفة، لكن البهجة كانت تشع في داخلها.

ـ حسناً، إذا كان من الضروري أن نمضي بعض الوقت معاً..

من الضروري؟ تكاد تطير فرحاً. وأضافت: «لم لا تتفضل بالدخول، سأحضر لك بعض القهوة».

- كنت تجهدين في العمل في الحديقة، فهل تسمحين لي بتولي هذه المهمة عنك؟

- لم ترَ بعد حالة مطبخ خالي!

وتذكرت أنها لم تخبر جيرارد قطُّ عن مكان سكن خالها، فسألته:

- كيف عرفت عنـ..؟

أجابها جيرارد قبل أن تنهي سؤالها: «أعطاني والدك العنوان».

إذن، لا بد أنه مر على البيت أولاً!

دخلا كوخ خالها المتداعي وقدّمت هذا الأخير إلى جيرارد. وتمنت لو تنشق الأرض وتبتلعها عندما علّق خالها، بدلاً من أن يظهر الدهشة لقدومه إلى داره سعياً وراء ابنة أخته بلطف: «نعم، أخبرتني ميرين عنك. لكن لم يتسنَّ لها الوقت بعد لتخبرني عن العشاء مع عائلتك».

رحمتك يا رب، قد يظن السامع أن حفلة العشاء أقيمت خصيصاً كي يقدمها إلى عائلته، لكن الحقيقة خلاف ذلك. بدا جيرارد مهتماً بما يقوله خالها، وألقى نظرة سريعة على وجهها الذي علاه الاحمرار الشديد. ابتسم لها، وخيّل لها أنها ابتسامة ماكرة وخبيثة، فلم تبادله الابتسام. قالت وهي تهم بالذهاب إلى المطبخ بسرعة: «سأجلب لك فنجان قهوة».

كان بإمكانها أن تسمع كل كلمة تقال في الغرفة المجاورة، لأن بيت خالها صغير. لكن فيما كانت تنظف المطبخ وتعدّ ثلاثة فناجين من القهوة، لم تستطع أن تفهم شيئاً مما دار بينهما وكأنهما يتحادثان بلغة أجنبية. ولاحظت أن جيرارد وخالها انسجما معاً، واستغرقا في مناقشة الأمور التقنية في حقل الهندسة.

وحالما انتهت من تحضير القهوة ووضعتها على الصينية، تنبّهت إلى أن الصمت قد لف الغرفة المجاورة. فخرجت بسرعة لكنها وجدت الغرفة خالية كما توقعت. وبدا جلياً أن خالها اصطحب جيرارد إلى ورشته لتفقد آخر اختراعاته.

كان بإمكانها أن تناديهما، لكنها قررت ألاّ تفعل. فخالها سيكون

مسترسلاً في الحديث عن موضوعه المفضّل، كما أنّها ستحضر لاحقاً المزيد من القهوة، إذا ما بردت هذه الفناجين. وتسنّى لها أثناء ذلك أن تنظف المطبخ وترتبه.

غابا طويلاً، مما سمح لميرين بالخروج إلى الحديقة لتنظّفها من بقايا العشب.

شعرت بالسرور لأن خالها وجيرارد اتفقا جيداً. لكن يجب أن تعود إلى المنزل، وهي بالكاد تبادلت بعض الكلمات مع جيرارد، لا سيما أنها لا تعرف متى ستراه مجدداً.

دخلت الورشة بعد عشر دقائق ووقفت تراقب الرجلين وهما منحنيان فوق طاولة العمل ومستغرقان في حديث تقني. انتظرت للحظة ثم نادتهما: «أنا مستعدة للذهاب الآن!».

رفع الرجلان نظرهما إليها، وتقدم جيرارد بضع خطوات منها. ولكن خالها تكلم أولاً، بعد أن التفت إلى ساعة الحائط وتنبّه للساعة: «إذن، من المفترض أن أشرب وحدي فنجان القهوة الثاني؟».

ضحكت ميرين، فلا يمكنها أن تغضب منه. أخبرته أنها وجيرارد أصدقاء وحسب، فلم يخطر في باله كم ودّت أن تقضي الساعة الماضية بصحبة جيرارد.

دنت من خالها وطبعت قبلة على خده، ثم قالت له إنها ستزوره، كالعادة، يوم السبت القادم. اعتقدت أن جيرارد سيبقى، لكنه استدار وصافح أموس ياردلي وشكره على سماحه له برؤية ورشته. وبعد أن ودّعاه، خرج جيرارد معها من الورشة.

قال لها جيرارد فيما كانا يتوجهان نحو البوابة الأمامية: «السيد ياردلي رجل ذكي للغاية».

ابتسمت ميرين وقالت: «أعرف ذلك».

ثم أضافت بعد لحظات: «لقد أخبرته عن حفلة عائلتك لأني كنت أخشى أن يخبره والدي...».

وشعرت بغبائها، فتمتمت: «إذا أتى لزيارته!».

نظر إليها جيرارد ثم علق قائلاً: «لا بأس، إذن».

لم تعرف ميرين ما إذا كان يعني ما يقوله، أو إذا ما أزعجه كلام خالها بعض الشيء، فحاولت أن تصلح الأمور: «لقد أخبرته أننا أصدقاء فقط».

استفهم منها: «وماذا كان تعليقه على ذلك».

وفجأة، شعرت ميرين أنها اكتفت من اتخاذ موقف الدفاع، فأجابته وقد تملّكها الغضب: «لقد قال إني أستحق الأفضل».

ضحك جيرارد، وشعرت أن حبها له يزداد ويزداد. سيفترقان بعد قليل، وهي لا تريد أن تفترق عنه أبداً. وصلا إلى بوابة الحديقة، ومد يده ليفتحها. أرادت أن تؤخره لكنها لم تعرف السبيل إلى ذلك.

ولكنه تمهل لحظة ثم استعلم منها: «هل أنت مرتبطة بموعد الليلة؟».

هزت ميرين رأسها بالنفي وأرادت أن تقول إنها كانت على موعد ليلة أمس، كي تزيل من رأسه فكرة أنها تبقى كل ليلة في البيت. لكن، حين نظرت إليه ولاحظت تعابير وجهه التي اتسمت بالعدوانية، سعت جهدها لتهدئة الجو.

- يمكنك أن تأتي لتناول طعام العشاء عندي إذا تخلت عنك.

دعته هازلة، وإن لم تتخيل أن امرأة ما ترفض جيرارد أو تتخلى عنه. وأصيبت بأكبر صدمة في حياتها عندما قبل دعوتها، إذ رد لها الصاع صاعين قبل أن تستطيع أن تطرف عينيها: «في أيّ ساعة؟».

- الساعة؟

للوهلة الأولى، لم تفهم ما قاله، لكن بشرتها اصطبغت بلون أحمر قانٍ، هي التي يمكنها أن تقسم أنها لم تحمرّ خجلاً قبل أن تلتقي به.

سارعت تعلمه: «لم أكن جادة حين دعوتك».

رفض أن يدعها تسحب دعوتها، فقال: «لقد فات الأوان، وقبلت دعوتك. في أيّ وقت؟».

حدقت ميرين فيه، وهي تعرف آنفاً، أنه سيمضي أسوأ أمسية في حياته إذا لم تمنعه من الحضور. بيد أن جزءاً منها يريد الاحتفال بجنون لأنها لن تضطر لتوديعه الآن والعيش على أمل أن تلتقيه ذات يوم صدفة. وهي ليست بحاجة إلى الأمل، وباستطاعتها أن تراه الليلة! الفرصة سانحة وما عليها إلا التمسك بها.

- أنت لا ترغب حقاً في تناول الطعام معنا.

طرحت سؤالها بهدف المراوغة، وهي تدرك أنه يجب ألاّ يأتي على العشاء.

نظر في عينيها الزرقاوين العميقتين من دون أن يتكلم، وسألها:

- أخبريني، هل هذه الأهداب الطويلة حقيقية؟

كان يعرف أنهما كذلك، فقد وقف قريباً جداً منها، بحيث يمكنه أن يرى ذلك بنفسه. وأخيراً، استسلمت. لكن منعها الإخلاص لعائلتها من أن تعلمه، أن ما من مواعيد محددة لتناول الطعام في منزلهم. فقالت:

- يمكنك الحضور عند الساعة السابعة. لكن لا تتأنق، فستضطر على الأرجح إلى المساعدة في الاعتناء بطفل بدأت أسنانه بالظهور.

فتح البوابة، وقبل أن يسمح لها بالمرور تمتم بمرح وهو يميل عليها ويقبل خدها: «إلى اللقاء إذن يا فتاتي الحلوة».

مرت ميرين قربه، وقلبها يرقص طرباً. قبلها وكأنها إحدى عماته. لكنه قبلها، وكانت ممتنة لهذا الفتات.

مرّت ساعات الظهيرة وميرين منهمكة في ترتيب المنزل. ارتاعت كارول في البداية من فكرة استقبال ضيوف على العشاء، وهددت ابنتيها بأن تحسنا التصرف الليلة.

اعتاد لويس شبرد على الخروج ليلة السبت. لكن، عندما علم أنهم سيستقبلون ضيفاً، قرر البقاء في المنزل، حتى أنه عرض عليهما: «هل أستطيع مساعدتكما؟».

لم تسمع والدها يعرض خدماته من قبل كما لم يسمعه أيّ شخص

آخر، لأن روبرت نظر إليه مستغرباً وسأله: «ماذا تريد أن تستدين، يا أبي؟».

أجابته ميرين بسرعة: «شكراً، أستطيع أن أتدبر أمري. لدينا شخص إضافي على المائدة هذا كل ما في الأمر».

وماذا لو كان هناك شخص إضافي؟ تمنت لو تستطيع تحضير مأدبة أفخر من المعجنات والسلطة. لكن ميزانيتها لا تسمح لها بشراء لحم الفيليه بوجود سبعة أشخاص على مائدة الطعام.

توقفت عن التفكير في قائمة الطعام، عندما دبّ خلاف بين روبرت وزوجته قبل وصول جيرارد بساعة.

دخلت ميرين إلى الحمام وأغلقت الباب فيما الغضب يتصاعد بين أخيها وزوجته ويتحوّل إلى مشاجرة عنيفة. فكرت ميرين باكتئاب أن هذا آخر ما تحتاجه. لم يكن الأمر يستحق المشاجرة. لكن أعصاب كارول كانت متعبة، وكذلك روبرت الذي يعاني إنما على طريقته الخاصة.

تنهدت ميرين، فلا بد أن الدموع تترقرق في عيون كارول الآن. ودّت لو تساعدها، لكنها تعلم أنه لا يحق لها التدخل. وأدركت ميرين أن دعوتها المبتذلة أسوأ فكرة خطرت لها على الإطلاق.

سرّها أن تبدأ الأمسية على نحو جيد، ربما لأن كل واحد منهم تصرّف على أفضل وجه. وصل جيرارد عند السابعة إلاّ دقيقتين. وعرفت ميرين الوقت بالضبط لأنها ما انفكت تنظر إلى ساعتها، اعتباراً من الساعة السابعة إلا عشر دقائق. أحضر معه أزهاراً لها ولكارول، وحلوى لكويني وكيتي، وعضاضة أسنان للصغير ساموبل، مما جعل ميرين تضحك في سرها.

تمتمت ميرين وعيناها تشعان بالمرح: «ذكي!».

قرر جيرارد وبكل بساطة، أن يحمل معه ما يعطيه للطفل ليهدّئه في حال أتى دوره ليعتني به.

أجابها وهو يتأمل عينيها الضاحكتين: «اتصلت بأمي فاقترحت عليّ أن أشتري عضاضة من صيدلية».

ـ هل أخبرتها أنك ستتناول العشاء هنا، وأن ساموبل..؟

ـ ولقد طارت من الفرح.

ـ جيرارد، سوف تصاب بالخيبة عندما تعرف الحقيقة.

فقال مبتسماً: «أنت حساسة للغاية».

وفور ذلك انضمت إليهما كويني وكيتي، فانتفت أيّ فرصة لتبادل أيّ حديث شخصي.

أعدّت كارول شرائح البطيخ كمقبلات، ورمقت كيتي بنظرات مهددة عندما حاولت العبث بالأكل.

ارتفعت معنويات ميرين، وهي تتذكر الأحاديث التي دارت حول طاولة العشاء عند عائلة مونتغمري، إذ لم يكن هناك لحظات صمت محرجة حول طاولة طعام عائلة شبرد. في الواقع، بدا أن الجميع يتصرف على أفضل وجه والأحاديث اللطيفة تتناول شتى المواضيع.

عندما انتهوا من تناول الطبق الأول، ساعدت كارول على إزالة الصحون عن الطاولة، وتوجهتا إلى المطبخ لإعداد المعكرونة والمعجّنات والصلصة والسلطة. اعترضت كويني عندما قدّمت لها أمها الطعام: «أنا لا أحب المعكرونة».

فأضاف لويس شبرد: «وأنا أيضاً».

تحوّلت نظرات ميرين إلى جيرارد الذي راح يراقب كل ما يحدث بصمت، وشعرت بالإحراج. سألته: «وأنت ما رأيك؟».

رد عليها بسرعة: «إنها أكلتي المفضلة».

بدا وكأنه لا يملك الجرأة اللازمة ليقول خلاف ذلك، فضحكت في سرها، وشعرت أنها تحبه أكثر، لأنه خلّصها من شعورها بالإحراج. لكن الوفاق لم يدم طويلاً، إذ نسيت الفتاتان تهديد أمهما بمعاقبتهما، ودبّ الشجار بينهما، مما أفقد الجميع شهيته.

أمرتهما كارول وهي تنظر شزراً إلى زوجها الذي بدا وكأنه لم يلاحظ سوء سلوك ابنتيه: «كفا عن ذلك! تناولا الطعام واشكرا ربكما».

- ولكن..

فكرت ميرين أن الوقت قد حان لتحويل اهتمام ضيفها عن الأولاد، فخاطبت جيرارد قائلة: «عمة والدك، سيدة راقية».

التقت العينان الرماديتان بالعينين الزرقاوين المضطربتين. ابتسم لها. لكن الطفل اختار هذه اللحظة بالذات ليصرخ. كاد أبوها يطلق شتيمة لولا أنه لمح نظرات كارول العدائية التي أعلمته أنها تفضّل ألاّ يشتم أمام أولادها. وقامت كارول للاعتناء بطفلها.

وحالما غادرت أمهما الطاولة، بدأت البنتان بالشجار مجدداً. لكن روبرت نهرهما من دون جدوى: «تعقلا!».

وفيما تابعت البنتان الشجار واستمر الصغير بالصراخ، نظر أبوها إلى ساعته واختلق موعداً ليهرب. فقال لضيفه وهو يبتسم بلطف: «أرجو أن تعذرني؟».

ولم يتلكأ في الذهاب، بل وضع فوطة الطعام على الطاولة، وانسحب. وراح روبرت ينظر إليه بحسرة ويتمنى لو يستطيع الانضمام إليه. لكن كارول اختارت هذه اللحظة لتعود دامعة العينين، حاملة طفلها الذي ما زال يبكي بين ذراعيها. سلمته ابنه قبل أن تصعد وتختفي مجدداً في الطابق العلوي.

نظر روبرت إلى ميرين لكنها تجاهلته وركّزت جهودها على تهدئة البنتين، قائلة: «تناولا ما تشاءان». ولما كانت الرشوة هي الحلّ الوحيد في هذه الظروف أضافت: «سوف أحضر لكما حلوى بالموز».

ولم يتوقف الطفل عن البكاء.

لم تستطع ميرين، بعد مرور ربع ساعة، إلاّ أن تقدّر لجيرارد إصراره على البقاء رغم الجلبة التي حدثت كلها. واعتقدت أنه قد يتصرف مثل والدها ويترك البيت منذ فترة.

لكن ها هو هنا، يتناول الطعام ويراقب ويلاحظ. ولم يعد من الممكن تبادل أيّ حديث لأن ساميول يبكي عند سماعه أيّ صوت غير صوته.

نظّفت ميرين الطاولة، بعدما رفضت أن يساعدها جيرارد. ثم أحضرت سلطة الفواكه للكبار وحلوى بالموز للأولاد. كما اعتنت بالطفل فيما راح شقيقها يلتهم محتويات صحنه.

أخرست الحلوى ابنتي شقيقها لثلاث دقائق وحسب، قبل أن تتشاجرا مجدداً. وشعرت ميرين برغبة في الفرار، لكنها دعت جيرارد لتناول العشاء وعليها أن تلتزم بأصول الضيافة.

- روبرت!

لفتت انتباهه بصوت علا الضجة، عندما بدا جلياً أنه لن يمارس سلطته الأبوية ليسكت ابنتيه. نظر إليها مستفهماً، فما كان منها إلاّ أن قالت له: «لا زالت مفاتيح سيارتي معك، فلم لا تصطحب كويني وكيتي إلى الغدير، لتلعبا لنصف ساعة، أو..».

- أرجوك، نعم يا بابا!

- هل ستهتمين بساميول؟

تململ الرضيع بين يديها، لكنه أصبح أكثر هدوءاً بعد أن أخرج شقيقها ابنتيه. ألقت ميرين نظرة على جيرارد، وتمنت لو تتمكّن من قراءة أفكاره.

قالت له بجفاء: «يمكنك الذهاب أيضاً، إذا رغبت في ذلك. فأنت لست مضطراً إلى البقاء».

نظر إليها بحزن، فشعرت بالارتياع. وتمنت أن يبتسم، لكنه سألها بهدوء: «هل هذا هو الحال دائماً؟».

ردّت عليه: «هل ترغب بمزيد من سلطة الفواكه؟».

وشعرت أن قلبها يرقص بين أضلعها عندما أصبحت تعابير وجهه أكثر رقة وسألها: «هل قال لك أحد إنك إنسانة رائعة؟».

اهدئي، يا ميرين! وتمالكي نفسك، فمنذ لحظة كنتِ على وشك البكاء. وها أنت الآن تهللين. أجابته: «أسمع ذلك دائماً».

ابتسم لها وسألها: «أين غسالة الصحون؟».

ـ إنك تنظر إليها.

كانت نظرات جيرارد هادئة وهو يقول لها: «تعالي وتحدّثي معي في المطبخ».

ـ لم تعجبك السهرة، أليس كذلك؟

وهل تتوقع أن يشعر بالغبطة بعد أن أمضى ساعة في الجحيم مع عائلتها؟ على أي حال، لم يكن الطفل سعيداً لأنه أطلق العنان لصراخه مجدداً.

سألها جيرارد بفضول فيما نهضت عن الكرسي وأخذت تذرع الغرفة والطفل بين ذراعيها: «هل الأطفال دائماً على هذه الحال؟».

أجابته بعذوبة: «هذا الوضع سيجعلك تنفر من الأبوة، أليس كذلك؟ بعض الأطفال رائعون. لكن هذا الطفل قلق منذ ولادته، بحسب ما تقول كارول».

تفهّم جيرارد الموضوع، ثم نهض من مكانه وراح يزيل الأطباق عن الطاولة.

اعترضت ميرين: «دع عنك هذا، فسأقوم بهذه المهمة».

فرد عليها باسترخاء: «يبدو لي أن يديك مشغولتان حالياً».

واختفى في المطبخ وهو يحمل أول مجموعة من الأطباق.

لحقت به ميرين فسألها وهو يحدّق في مخلفات طعام سبعة أشخاص: «هل تقومين بهذا العمل كل ليلة؟».

ـ للضرورة أحكام.

ووجدت مكاناً لتضع الصحون المتسخة التي كان يحملها، فاقترب منها وهو يتأمل وجهها، ثم انحنى وطبع قبلة رقيقة على خدها، مما أذهلها.

انتفض قلبها وتسارعت نبضاته بجنون. وفيما كانت تحدّق في جيرارد وهي عاجزة عن الكلام، عاد إليها تعقّلها، ولاحظت فجأة أن الطفل توقّف عن البكاء. فاجأها ذلك، لأن ساميل لا يكف عن البكاء. حوّلت نظرها

بعيداً عن جيرارد لتلتفت إلى الطفل بين ذراعيها فوجدته ينظر إلى جيرارد ويبتسم له.

عادت لتنظر إلى جيرارد غير مصدقةٍ، وقالت له على سبيل المزاح:

ـ كرر ذلك ثانية.

لكن جيرارد، الذي ما كان ليرفض أيّ دعوة منها، ضمها والطفل بين ذراعيه، وأعلمها أنه مستعد لأن يكرر فعلته في أيّ وقت.

وبعد لحظات، أرخى جيرارد ذراعيه، وأشاح بنظره عنها ليتأمل الطفل الضاحك. أما ميرين فبقيت مذهولة، وقد أثر فيها عناق جيرارد وسعادة ابن أخيها.

عجزت عن الكلام، وعجزت عن كسر سحر هذه اللحظات، ولم يعد أمامها إلاّ أن تشكر ربها حين ابتعد عنها جيرارد.

وقال لها بخفة: «اتصلي بي إذا ما عاود الصراخ عند منتصف الليل، وسوف أحضر فوراً لأكرر فعلتي».

ضحكت ميرين لكلامه هذا. أليس رائعاً؟ بيد أنها توقفت عن الضحك حين شمّر عن ساعديه واتجه إلى حوض الغسيل قائلاً: «لن يؤدي هذا إلى تنظيف الصحون».

هل يعتزم التصدي لهذا الجبل المتراكم من الصحون والأواني المتسخة؟

فردت عليه معترضة: «لا!».

استدار نحوها وقال: «لا؟».

أوه، كم تحبه.

ـ هذا ليس لائقاً، فأنت ضيف.

رد عليها بحزم: «لقد قمت بما يكفي».

ثم أضاف وهو يلقي نظرة على الطفل بين ذراعيها: «وما زلت تفعلين! لهذا اجلسي وراقبي مبتدئاً يعمل. لن أسمح لك بالضحك إلاّ في حالات الضرورة القصوى».

وبما أنها كانت تهتم بالرضيع، لم يعد بوسعها أن تمنع جيرارد من تولّي مهامها في المطبخ. وبعد حين، اكتشفت ميرين أن مراقبة جيرارد وهو يغسل الصحون علاج شافٍ لروحها. بقي الرضيع على هدوئه! فتساءلت عما إذا كان للنزاعات والمشاحنات اليومية في البيت تأثير سلبي عليه.

جفف جيرارد يديه وأنزل أكمام قميصه ثم دنا منها وجلس إلى جانبها. كان الرضيع قد أخلد إلى النوم، فقال: «أخبريني يا آنسة شبرد، علامَ سيحصل صديقك لقاء عمله؟».

ـ صديقي، لقاء عمله؟

علت الحمرة وجهها، لكنها قررت مجاراته، فسألته: «ماذا يعطون في عالمك؟».

ردّ عليها: «أعلمك أنّني لم أخرج مع امرأة منذ أسابيع».

شعرت بالفرح يغمرها، لكنها سألته باهتمام ساخر: «هل كنت مريضاً؟».

لكنها استدركت وأضافت: «تمهل لحظة! لقد خرجت مع ايزادورا توماس في موعد، الأسبوع الماضي، يوم الأربعاء تحديداً».

ـ حسناً يا شيرلوك هولمز. إن كنت قد خرجت في موعد منذ عشرة أيام، فماذا كنت تفعلين ليلة أمس! تقومين بالتنظيفات البلدية؟

تقوم بالتنظيفات البلدية! لا بد أنه لم يرَ يوماً المكان الذي اعتادت أن تلتقي فيه أصدقاءها. فاعترفت له بمرح: «أعترف بهذه التهمة».

لكنها لن تعترف له أن بيرتي ارمسترونغ شاب مرح وطيب، لم ولن يصنف قطّ كصديق حميم.

تأملها جيرارد للحظات صامتة، ثم مد يده إلى خصلة شاردة من شعرها الأحمر وأبعدها عن جبينها، قائلاً برقة: «تبدين متعبة».

ـ هذا ما تتمنى أن تسمعه كل الفتيات.

ابتسم لها وقال: «لكنه الواقع».

عاد وكرر السؤال الذي طرحه عليها سابقاً: «هل الوضع على هذه الحالة دائماً؟».

فاستفهمت منه ببراءة، رغم أنها تعلم ما عناه: «أي حالة؟».

ـ لنقل إنكِ لم تعرفي ما الذي سيصيبك عندما انتقل شقيقك وأسرته للإقامة هنا، ثم لحق بهم والدك.

ماذا يمكنها أن تقول؟ يحتّم عليها إخلاصها لعائلتها ألاّ تتحدث عن التغيير الهائل الذي طرأ على حياتها، بعد أن اعتادت على وحدتها الهادئة. وقبل أن تنطق بكلمة واحدة، مد جيرارد يده إلى جيب سرواله وأخرج مفتاحاً وضعه على طاولة المطبخ قربها. وقال متوسلاً: «احتفظي به لبعض الوقت.. لدي مفتاح إضافي في المنزل. إنه مفتاح بيرتشوود، المنزل الذي ورثته عن جدتي العام الفائت».

حدّقت ميرين فيه وقد تملكتها الدهشة لعرضه هذا. أتحتفظ بمفتاح منزله لبعض الوقت؟ وتابع يقول: «فكرت في أن أقضي الليلة هناك، لكني عدلت عن ذلك. على أي حال، ليس هنالك ما يمنعك من الذهاب إليه».

سألته وقد اتسعت عيناها دهشة: «هل تعرض عليّ مفتاح هذا البيت؟».

ـ إذا رغبت في أن تفرّجي عن نفسك، وفي حال تفاقمت الأمور هنا. يمكنك أن تقضي عطلة الأسبوع القادم هناك.

إنه يعرض عليها استخدام بيرتشوود، منزله الجديد في نيوفورست!

ردت عليه معترضة: «أوه، كلا.. لا أستطيع ذلك».

ـ طبعاً تستطيعين. فكري في الأمر يا ميرين. السكينة والهدوء، وسرير مزدوج كبير وفاخر لتنامي عليه.

ـ أوه، كف عن ذلك.

يبدو الأمر نعمة من السماء، نعمة رائعة ومباركة.

وجدت نفسها تسأله، وكأنها ستلبّي دعوته: «لن تكون هناك، أليس كذلك؟».

ـ ستكونين وحيدة. ستجدين في المطبخ خزانة مليئة بالمأكولات والعصير.

لكن ميرين هزت رأسها نفياً قبل أن تغريها الفكرة وتجد فيها فرصة رائعة لتعويض ما فاتها من نوم هادىء. قالت له: «شكراً، هذا كرم زائد منك. ولكن..».

ـ احتفظي بالمفتاح على أيّ حال، فقد تغيّرين رأيك. سوف تجدين عليه العنوان الذي علّقته أمي، بانتظار أن يصبح المنزل لي.

أوشكت ميرين أن ترفض ثانية. لكنها سمعت صوت أبواب سيارتها تصفق بقوة.

كاد باب المطبخ يخلع عندما دفعته كويني وكيتي ودخلتا، مما أجفل ساميول الصغير، فبدأ بالبكاء. وصلت فترة السكينة إلى نهايتها.

نهض جيرارد، وأخذ المفتاح ثم دسّه في كفها قائلاً: «فكّري في الأمر يا ميرين! الهدوء والسكينة».

فقالت ضاحكة: «لا تكن لئيماً!».

أخرج مفاتيح سيارته من جيب سترته وبدا جلياً أنه سيرحل، بعد أن احتلت الفتاتان المكان.

سألته بلطف: «ألن تبقى لشرب القهوة؟».

فقال لها ضاحكاً: «أحبك».

وتمنت لو كان ذلك حقيقة.

***

٦ ـ بوّابة الحيرة..

شعرت ميرين بالقلق والتململ بعد أن رحل جيرارد يوم السبت. ورافقها هذا الشعور طيلة الأسبوع الذي تلا. فإذا ما رن جرس الهاتف، ونادراً ما كان هذا يحصل، يتدفق الأدرينالين في عروقها، لعله المتصل. لكن أمنيتها لم تتحقق قط. ولِمَ سيتصل على أي حال؟ حسناً، ربما قد يفعل، إذا أمه..

وقد يأتي لزيارتها أيضاً. إذا أصرّت أمه على أن تعرف كيف تسير الأمور بينهما..

لكنه لم يأتِ لزيارتها ولم يتصل بها، فأصبحت ميرين سريعة الانفعال. وراح والدها يفقد أعصابه لأتفه الأسباب، وأضحت ابنتا شقيقها أكثر عناداً من أيّ وقت مضى. كما لم تتحسن حالة كارول النفسية، ونادراً ما كان روبرت يمد يد العون.

دبّ شجار بين روبرت وزوجته ليلة الجمعة، فتمنت ميرين، التي لم يكن لديها غرفة تلجأ إليها، أن تبتعد عن المنزل. وفيما أخذت كارول تعاتب شقيقها على تقصيره، خرجت ميرين إلى الحديقة. يمكنها، بالطبع، أن تستفيد من عرض جيرارد، وتلجأ إلى منزله في نيوفورست.

كانت ميرين عازمة على ألاّ تذهب إلى منزل جيرارد الذي ورثه عن جدته في بيرتشوود، لكن الفرصة لا زالت مغرية جداً. عادت ميرين إلى الداخل، فرأت المشاجرة بين روبرت وكارول قد انتهت، لكن التوتر لا يزال مخيماً.

خطر في بالها أن كارول لا تخرج من المنزل إلا نادراً، فسألتها دون تروٍ: «ما رأيك في نزهة سيراً على الأقدام، يا كارول؟ يمكننا..».

ولكن كارول أخذت تهز رأسها نفياً، قبل أن تنهي ميرين كلامها فيما عادت كوبني وكيتي إلى الصراخ والشجار.

قالت لها: «لا، شكراً».

اقترح عليها روبرت: «يمكنك أن تصطحبي البنتين إذا أحببت».

ولكن زوجته قطعت عليه الطريق بحزم: «أجل، كعهدك دائماً، تحاول التخلّص من مسؤولياتك.. فأنت لا تفعل شيئاً إلا إذا..».

عندها، غادرت ميرين البيت وخرجت لتتمشى. إنها تفتقد أيام السكينة والهدوء، فهي ليست مستعدة للخلافات، ولهذه المشاجرات المستمرة. كما أنها في غنى عنها، لكنهم أفراد عائلتها.

كان من المفترض أن تلتقي بيرتي وأصحابها لاحقاً هذه الليلة، لكنها لن تتحمل ذلك. كما لن تتحمل فكرة الرجوع إلى البيت. وجدت نفسها تسير بمحاذاة الجسر، فاقتربت من حافته ومالت عليها تتأمل ماء النهر المنساب تحتها.

أخذت تفكر بحزن في علاقة روبرت وكارول التي ساءت في الآونة الأخيرة. إن روبرت يمر بأوقات عصيبة، لكن كارول تعاني هي أيضاً. لقد اتهمته بأنه يحاول دائماً التملص من مسؤولياته، فهل هذا صحيح؟

أزعجها شعورها بأن هذه التهمة صحيحة. وفجأة، أغراها شعور أسوأ، إذ أحسّت بأنها ملامة جزئياً على ما وصل إليه وضعه. فقد اعتادت أن تصطحب البنتين في نزهة أو في جولة في السيارة أو أن توصلهما إلى مكان ما، فيما والدهما قابع في البيت لا يفعل شيئاً.

واتخذت أفكارها، فجأة، منحى لم تخطط له.

هل كان روبرت ليبذل جهداً أكبر وينسجم مع كارول أكثر، إن لم تكن موجودة؟ هل كان روبرت ليفكر في رعاية كارول وأولاده، لولا وجودها المستمر معهم؟

وتذكرت ميرين أنها منذ أسبوعين غابت عن المنزل لليلة، فلم تلاحظ أيّ فارق في علاقة كارول وروبرت عندما عادت. كما تذكرت حالة البيت المزرية، وكيف لم يحرك روبرت ساكناً ليرتب المنزل خلال الفترة القصيرة التي غابتها.

عانت ميرين من كابوس آخر تلك الليلة، وهي المرة الأولى منذ عودتها من هيلمونت. وكانت تتساءل عما إذا كان الإفصاح عما تعانيه وعن مشاعرها لوالد جيرارد قد جعل كوابيسها أمراً منسياً من الماضي.

استيقظت باكراً، ولكن هذا الهدوء لم يدم، إذ نزل باقي أفراد العائلة وبدأت الخلافات بينهم. حضّرت ميرين نفسها لزيارة خالها أموس وبدأت تفكر في المحظور. لقد قالت لجيرارد أنها لن تستخدم منزله في نيوفورست، لكنها عدلت عن رأيها فجأة، وراحت تفكر في الأمر فعلياً.

وفي طريق العودة، فكرت في أنها قد تلجأ إلى هذا الحل. وعندما فتحت الباب الأمامي لمنزلها، وتناهت إلى مسامعها الجلبة، أيقنت أنها ستقتنص الفرصة.

حالما دخلت، حزمت بعض الأغراض الضرورية، وأعلمتهم أنها ستمضي الليلة في منزل نيوفورست الذي يملكه جيرارد.

رافقها والدها إلى السيارة وقال: «أحتاج إلى بعض المال يا ميرين.. لا أعتقد أن باستطاعتك..».

أعطته ميرين بعض المال وانطلقت في طريقها.

يقع بيرتشوود في منطقة منعزلة ويتألف من أربع غرف نوم، وهو محاط بأشجار ونباتات جميلة، ولا يمكن رؤية أيّ منزل آخر من حديقته المنسقة. لعل بستاني ما اعتاد أن يعتني بها على هذه الصورة.

وجدت ميرين مكاناً لتضع فيه الأغراض القليلة التي حملتها معها، وشعرت على الفور بالإطمئنان في أملاك جيرارد. كما أحسّت بالراحة والاسترخاء، فقد كانت بحاجة إلى الابتعاد عن منزلها.

مضت ساعة على وجودها، فأخذت ميرين تشعر وكأنها إنسان

مختلف تماماً. وعندها، أقرّت لنفسها أنها بدأت تصبح متوترة الأعصاب في المنزل، كزوجة شقيقها. ربما عليها الانتقال من هناك. لعلها تجد وسيلة..

كان يوماً صيفياً جميلاً، ووجدت ميرين في بداية الأمسية كرسياً من القش، فحملته إلى الشرفة وجلست عليه وهي تشعر بالاسترخاء. بقيت على الشرفة حتى حلّ الظلام. وقررت، وقد أصبحت على حريتها، أن تتناول العشاء في وقت متأخر، لأنها ليست جائعة.

أغمضت عينيها. أوه، شكراً يا جيرارد، ألف شكر.. إنه.. تناهى إلى مسامعها صوت. لقد سمعت صوتاً في ملاذها الهادىء والآمن، وخيّل لها أنه صوت محرك سيارة. فتحت عينيها قليلاً.. إنه جيرارد!

بدأ الانفعال يتملكها فيما ركن جيرارد سيارته أمام مرآب منزله. التفت إلى الأعلى ولوّح لها بيده. ولم تستطع أن تتبين ما إذا دهش لرؤيتها، لكن لا يمكن أن تكون دهشته بمقدار دهشتها لرؤيته!

ما من جدوى في التفكير في سبب وجوده هنا. إنه في بيته! وأدركت ميرين بسرعة أنّ عليها أن ترحل. يجب أن تذهب، وافترضت، بعد فوات الأوان، أنه كان عليها أن تتصل به لتخبره بأنها عازمة على قبول اقتراحه لتمضية عطلة نهاية الأسبوع في بيرتشوود. وهكذا، ستتسنى له الفرصة ليعتذر ويخبرها أنه ينوي قضاء عطلة نهاية الأسبوع هنا. ولكن ما من مشكلة، سترحل قريباً. لكن رؤيته فجأة أمر رائع، رائع جداً، جداً.

نهضت عن كرسيها حين تقدّم منها، وشرعت تقول: «كان يجب أن أتصل! كان يجب أن أعلمك عن نيتي في استخدام المفتاح. غير.. غير أنني لم أتخذ قراري إلاّ هذا الصباح..».

قطع الطريق على اعتذاراتها المتسرّعة قائلاً: «مساء الخير يا ميرين. كيف حالك؟».

ماذا يمكنها أن تفعل؟ إنها تحبه. ضحكت قليلاً ثم توقفت لتقول:

ـ سوف أغادر، سوف أجمع أغراضي و...

قاطعها جيرارد بحزم: «لا أريد سماع هذا الكلام..».

وحدق مبتسماً في عينيها الزرقاوين العميقتين.

اعترضت وهي تشعر بالارتياع: «ولكنك...».

فلا بد أنه يتوقع أن يكون وحيداً، غير أنه وجدها هنا.

قاطعها ثانية: «البيت كبير ويتسع لنا، معاً».

حدقت ميرين فيه بتعجّب، وقلبها يخفق بسرعة. هل هذا يعني أن باستطاعتها البقاء هنا معه؟ وأنها لن تحتاج إلى الجلوس والتفكير فيه من دون أن تراه؟ وأن باستطاعتها تمضية الأمسية وربما بعض الوقت في الصباح معه؟

ـ أنت تر... تريد أن تمضي بعض الوقت وحيداً في الريف.

شعرت أنّ من واجبها أن تلح عليه، في حين أنها ترغب في أن تسكت ضميرها.

ـ ألا ترغبين في وجودي هنا؟

حدّقت فيه مذهولة، ولم تستطع سوى الإجابة بصدق: «هذا ليس ما عنيته».

ـ هل تفضّلين أن أذهب إلى فندق؟

صاحت به: «جيرارد!».

ـ ميرين.

قالت له بنبرة جافة: «سوف أرحل!».

ـ هل هذا بسبب مجيئي؟

ـ لم ألاحظ وجود أيّ فندق في الجوار. كما أن...

ـ هل تريدين مني أن أعود إلى لندن.. يا عديمة الرحمة!

أخذت تشعر بالاسترخاء مجدداً. فمن الرائع أن تكون معه. أطرقت قليلاً واستفهمت: «وما المشكلة في العودة إلى لندن؟».

ـ أمي هناك.

لاحظت ميرين أن منزل والدي جيرارد يقع على بعد عشرين دقيقة من

منزله في نيوفورست، ولكن يبدو أن أمه ليست هناك في نهاية الأسبوع. سألته: «هل تقيم أمك في بيتك في عطلة الأسبوع هذه؟».

ـ إنها مع خالتي روزا. سافر أبي إلى السويد لحضور مؤتمر. وقررت أمي ألاّ ترافقه لتتمكن من حضور عرض مسرحي ترغب في مشاهدته.

ـ ألا تمانع في أن تبتعد عن المنزل وتتركها..؟

ـ وأنتِ، هل ستحضرين لي فنجان قهوة؟

ـ اتبعني.

دعته إلى الداخل وأصبح كلاهما في المطبخ قبل أن ترد على سؤاله.

ـ تعتقد أمي أني على موعد معك في مكان ما.

ـ أوه. جيرارد، لا تقل لي إنك أخبرتها..؟

وتوقفت عن الكلام.. ثم استدركت قائلة: «أنا آسفة، هذا ما اتفقنا عليه، أليس كذلك؟».

أمرها بلطف: «ضعي ضميرك الحي جانباً، لم أكن مضطراً لقول أيّ شيء. جل ما فعلته هو أنني أمّنت حاجات أمي وخالتي وأخبرتهما أن لدي بعض المشاريع».

ـ آهه!

ـ ماذا تعني هذه «الآهه»؟

حدّقت فيه والشرر يتطاير من عينيها: «أرى أن اصطحابك لشخص ما لشرب القهوة مع أمك يختلف عما هو معروف عنك».

تغيّرت نبرة صوته وأصبحت أكثر جدية عندما قال: «لن أدعك ترحلين.. هل تسمحين لي بجلب أمتعتي من السيارة؟».

ردت عليه بنبرة جافة: «أوه، لا بأس».

وابتسمت ابتسامة عريضة كذّبت نبرتها.

كان طعام العشاء خليطاً من المأكولات التي جلبها كل منهما.

خرجا للتنزه بعد أن تناولا طعام العشاء ونظفا الصحون والأواني. سارا وهما يتبادلان الأحاديث، وكان جيرارد قد أحاط كتفيها بذراعه،

لكنه عاد وأنزلها بعد لحظة. شعرت ميرين بسعادة لا توصف في هذه اللحظات الحميمة. شغل أفكارها كلها رغم وجودها معه، ولم ترغب في التفكير في عائلتها ولا في الضرر النفسي الذي يلحق بها، لانتمائها إلى عائلة تعيش في نزاعات مستمرة.

كان الظلام قد بدأ يخيم عندما عادا إلى المنزل. شعرت ميرين بالتوتر حالما دخلا، إذ قد يلاحظ مشاعرها الجارفة نحوه، وهذا ما لا تستطيع تحمله.

أعلنت بعد وقت قصير: «أعتقد أن الوقت قد حان كي أخلد إلى النوم».

واضطربت عندما بدا جيرارد مدهوشاً بعض الشيء، وسألها مبتسماً بتهكم: «ما الذي فعلته؟».

ـ أعذرني.. هل تريد أن أحضر لك شراباً ساخناً أو أيّ شيء آخر؟

ـ هذا ما أحبّه.. «عبد مطيع»!

فردت عليه ضاحكة: «إذاً، قم وأعدّ شرابك بنفسك؟».

ثم حاولت أن تشرح له رغم ضعف حجتها: «كنت أنتظر بفارغ الصبر فرصة الاستلقاء على السرير، وذلك منذ أن أخرجت الشراشف من الخزانة».

بدت حجتها مقنعة، إذ تمتم جيرارد وهو يدنو منها: «يا ميرين الصغيرة، المسكينة».

فقاطعته: «لا تحاول أن ترثي لحالي!».

ثم ضحكت، فقال ممازحاً: «من يجرؤ على ذلك؟».

ـ ليلة سعيدة.

ابتسمت، وشعرت أن قلبها يتخبط بين ضلوعها، عندما ضمها جيرارد برقة إلى صدره، وردّ عليها: «ليلة سعيدة».

صعدت ميرين الدرج وهي تكاد تطير من الفرح. استحمت وارتدت ثياب النوم واندست في الفراش.

فتنتها ذراعا جيرارد اللتان ضمتاها، وحملتها السعادة على جناحيها فجافاها النوم. كانت لا تزال مستيقظة، عندما سمعت وقع خطواته وهو يصعد الدرج. وانقضت ساعة أخرى، والنوم ما يزال يجافيها. لا تريد أن تنام، بل تريد أن تستمتع بكل لحظة إلى جانبه، معه تحت سقف واحد. يمكنها أن تنام لاحقاً. أما الآن، فهي مع جيرارد وحدهما. وهو لطيف ومسل ومحنك وعطوف.. وهي تحبه.

أسعدها أن السيدة مونتغمري وشقيقتها تستخدمان بيته في لندن خلال هذه العطلة الأسبوعية، مما أعطى جيرارد حجة لترك المنزل. وفجأة خطر لها، أنه لو كان مرتبطاً بموعد هذه الليلة، لما أراد أن تعرف أمه به، ولأمضى عطلة نهاية الأسبوع في أحد فنادق لندن.

أغمضت ميرين عينيها واستسلمت للنوم، وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة عذبة. أعجبتها فكرة ألاّ يكون جيرارد على موعد مع امرأة كايزادورا توماس خلال عطلة الأسبوع هذه. وبدلاً من ذلك، جاء إلى هنا.

نامت ميرين نوماً عميقاً لم تخالطه الأحلام. وكانت لا تزال نائمة عندما سمعت طرقاً على الباب أيقظها من سباتها.

قالت والنوم ما يزال يداعب جفنيها: «تفضل».

جاهدت للنهوض، وعملت على إخفاء سرورها، عندما دخل جيرارد مرتدياً ثياباً خفيفة وحاملاً صينية عليها فنجان.

حيّاها قائلاً: «الشاي يا سيدتي».

ردّت عليه وقد استيقظت كلياً: «أوه جيرارد، أنت تدللني».

فأجاب بخفة: «لقد حان الوقت لكي يفعل أحدهم ذلك».

وانحنى ليضع صينية الشاي على الطاولة إلى جانب السرير.

نظرت ميرين إليه ثم أشاحت بنظرها بعيداً. كان قريباً منها للغاية:

ـ كم الساعة الآن؟

ـ قاربت الثامنة.

قالت وكأنها لا تثق بكلامه: «مستحيل».

ثم مدت يدها إلى الطاولة لالتقاط ساعتها، وأدركت أنه محق.

أوضحت له وهي تراه يدنو من السرير ويجلس على طرفه: «أنا لا أنام أبداً حتى هذه الساعة».

علّق على كلامها: «لا عجب في ذلك، مع السيد ساموبل الذي يختبر قدراته دوماً».

وبدا أن الأمر يسليه.

أدركت أن ما يحصل لها أروع من أن يستمر، لكنها لم تشأ أن تضع حداً. شكرته على إحضار الشاي وتنبّهت فجأة إلى أن شعرها مشعث، وأنها لم تتبرج. كما أدركت أنها ما زالت في ثياب النوم، فبدأت بتسويتها، ورفعت الغطاء حتى ذقنها لتخفي جسمها. ولما لاحظت أنه ليس على عجلة من أمره لمغادرة غرفتها. أعلنت له: «حالما أنتهي من شرب الشاي سأحزم أمتعتي لأعود أدراجي إلى المنزل».

اعترض جيرارد: «لا تستطيعين العودة، بعد!».

أحست بالحرارة تسري في عروقها لكلامه هذا، لكنها جادلته قائلة:

ـ ما الذي يمنعني؟

هل سيجدي نفعاً أن ترمي بذراعيها حول عنقه وتستسلم لشوقها ومشاعرها؟

أصر عليها: «أنت امرأة لا قلب لها.. من سيحضّر لي طعام الغذاء؟».

لم يكن هذا الرد الذي تمنته، لكن لا بأس بهذا العرض. يمكنها أن تقول له إنّ عليها أن تعود من أجل عائلتها، لكنه قد يرضخ ويودّعها. وهي لا تريد تفويت فرصة قضاء بضع ساعات أخرى معه.

قالت باختصار: «حسناً».

فضحك ورقص قلبها فرحاً.

سألها: «هل نمت جيداً؟».

وتذكّرت ميرين كيف أزعجته حين أمضيا الليل تحت سقف واحد في منزل والديه، وأدركت أنه يستفهم عما إذا رأت كابوساً الليلة الماضية.

ـ لقد نمت مثل لوح خشب.

نقّل نظراته من عينيها إلى فمها المبتسم، ونهض على حين غرة. وشرع يقول وهو في طريقه إلى باب الغرفة: «حسناً، جهّزي نفسك لنزهة طويلة وممتعة سيراً على الأقدام بعد الفطور».

غمر الفرح كيانها، وهي تسير مع جيرارد في المروج والحقول، يتوقفان من حين إلى آخر للتمتع بالمناظر، ولالتقاط أنفاسهما. تبادلا الكلام أحياناً في مواضيع شتى، وسارا جنباً إلى جنب بصمت أحياناً أخرى. وراحت ميرين تخزّن الذكريات لاسترجاعها حين تنتهي هذه المرحلة الذهبية من حياتها.

ما كان هذا ليحدث لو لم تتعرض للسلب وتستدين المال منه. ومع أنها ما زالت تعتزم إعادة المبلغ كله، ودّت في هذه اللحظات لو تنسى المسألة برمتها، وتستمتع برفقته وحسب.

مرا بمتجر القرية لشراء صحف يوم الأحد، في طريق عودتهما. وبعد أن وصلا إلى البيت سمعت ميرين صوت سيارة تتوقف أمامه.

ألقى جيرارد نظرة من النافذة، ثم التفت إلى ميرين قائلاً: «اختاري بين ثلاث احتمالات».

حدقت فيه وقالت: «أعطني دلالة».

ـ أنثى كانت تقيم هنا منذ سنوات طويلة مع أمها. أنثى أعتقد أنها تحتفظ بمفتاح هذا المنزل، وجاءت لتتفقد المكان في غيابي.

صاحت ميرين: «أمك!».

وتملكها الذعر فجأة فأطلقت صوتاً يشبه الصرير وأضافت: «سوف تعتقد أننا عشيقان!».

وافقها الرأي قائلاً: «هذا احتمال وارد».

ثم أضاف: «سوف أوضح لها الأمر. سأخبرها الحقيقة».

لا، لن يفعل هذا وهي لا تزال مدينة له فقالت: «إياك أن تفعل!».

سألها مدهوشاً: «ألا تريدين أن أفعل ذلك؟».

هزّت ميرين رأسها بالنفي. لقد أصبح هذا الدين عبئاً على كاهلها.

قالت له: «شرط أن تتأكد من أن أمك تفقدّت غرف النوم ورأت أن كل منا يشغل غرفة على حدة».

ولم ترَ الأمر مسلياً عندما ضحك، وقال لها: «أنت ظريفة! ألا تظنين أن أمي قد تستنتج أني انتقلت إلى غرفة نوم أخرى لأنك تشخرين..؟».

أحست ميرين، التي وقعت في حيرة، أن وجهها أصبح وردي اللون، ولم تكلف نفسها عناء الرد. وقبل أن تفتح السيدة مونتغمري الباب، توجه إليه جيرارد.

سمعت ميرين السيدة مونتغمري تسأله مستغربة عن سبب وجوده في المنزل، وجيرارد يجيبها. ولم يعد أمامها غير ثوانٍ قليلة لتتغلب على اضطرابها قبل أن تدخل ضيفتهما.

أعلن بسرور: «انظري من جاء للتو».

وفيما تقدمت ميرين منها وهي تتجاهل جيرارد، راحت السيدة مونتغمري تعتذر متلعثمة: «أنا آسفة. لم أقصد أن.. لقد أوصلت روزا، خالة جيرارد، إلى منزلها لتوي، وهي تسكن قريباً من هنا. وفكرت، بما أني أصبحت في الجوار أن أمرّ وأتفقد المنزل..».

كانت ميرين تحبها. ونسيت في خضم تأسّفها على ارتباك السيدة مونتغمري، الإحراج الذي تشعر به، فابتسمت وقالت لها: «كنا نبحث مسألة الغداء، ويسرني جداً أن تشاركينا الطعام».

ألقت نظرة سريعة على جيرارد، فتبيّن لها من تعابير وجهه أنه لم يتوقع منها ذلك. لكن أمه رفضت دعوتها قائلة: «لا أستطيع، أشكرك جداً يا ميرين. لكنني أنتظر بعض الضيوف لشرب الشاي ويجب أن أعود. أردت أن أقوم بزيارة خاطفة وحسب».

استعاد جيرارد رباطة جأشه وأصرّ على أمه كي تشرب القهوة معهما،

لكنها لم تمكث إلا لفترة قصيرة فخرجا معها لتوديعها.

تبادلت ميرين الحديث مع السيدة مونتغمري بارتياح خلال وجودها، لكنها التزمت الصمت عندما عادت مع جيرارد إلى الداخل.

بدا أن شيئاً من سحر هذا اليوم قد اختفى، وبدأت تشعر بالارتباك.

أما هو، فلم يعش هذه المشكلة، إذ خاطبها قائلاً: «أنت تكرهينني، أليس كذلك؟».

كانت نبرته عادية، فأعلمتها أنه لا يهتم سواء أحبته أم كرهته.

استدارت نحوه، وهي تتعمد خفض بصرها كي لا يرى الألم في عينيها. قالت له بهدوء: «سأحضر حقيبتي وأتركك في سلام».

كادت تتجاوزه لكن يده امتدت إليها وجذبتها نحوه. أرادت أن تتملص لكنه أمسك بها بشدة. رغم ذلك لم ترفع نظرها إليه. ولم تكن تنوي أن تنظر إليه، حتى عبّر عن معارضته لذهابها بسؤال محزن: «ما هو مصير غدائي؟».

رفعت رأسها بحدة وحدقت فيه. ابتسم لها فنسيت ألمها. وأحسّت أن أشعة الشمس قد تسللت إلى قلبها.

دفعه الفضول ليسألها: «أما زلت تكرهينني؟».

ضحكت في داخلها وردت: «ليس بما يكفي لأحرمك من وجبة الغداء».

- هذا جيد، وأنا لا أكرهك.

- هل هذا صحيح؟

- ومن يستطيع أن يكرهك؟ خاصة وأن أمي تستلطفك.

أوه، كم هي تحبه! أرادت أن تعلمه أن سحره الرائع، لم يؤثر فيها أبداً.

فقالت له بلهجة آمرة: «أين مقشرة البطاطا؟».

- أنت تنظرين إليها.

ضحكت لجوابه، فتحولت نظرات جيرارد إلى فمها.

- هل ستعانقينني كي أقتنع بأنك سامحتني فعلاً؟

اقتربت منه وعانقته ثم ودت لو تضمه إلى الأبد خاصة عندما أحسّت بذراعيه تلتفان حولها. ولكن هذا لن يكون أبداً.

فأجابته ببرودة: «أتريد أن تخسر وجبة الغداء يا مونتغمري».

عندئذ، سمعته يتمتم شيئاً عن «مقشرة البطاطا»، وراح يبحث في الأدراج عن واحدة.

بدت لها شرائح اللحم والبطاطا والقرنبيط والفواكه الطازجة لاحقاً، أفخر وجبة تناولتها في حياتها. وعرفت أن عليها أن تنهي هذا اللقاء الرائع بعد قليل، وأن تفكّر في مسألة ذهابها. لكن ليس بعد.

أخذت ميرين تطالع إحدى الصحف التي ابتاعتها من القرية، فيما حمل جيرارد صحيفة أخرى. لم يكن لديها أيّ فكرة عما قرأته، لأنها أجبرت نفسها على ألاّ تسترق النظر إليه مراراً وتكراراً.

وعندما قاربت الساعة الرابعة، أدركت أنه لم يعد بإمكانها تأجيل رحيلها، فوضعت الصحيفة جانباً. خاطبت جيرارد الجالس أمامها بنبرة مرحة: «سأعد لك إبريق شاي، قبل أن أنطلق».

أخفض صحيفته ببطء وسألها: «هل أنت مضطرة لذلك؟».

انتعش قلبها. أيطلب منها أن تبقى لفترة أطول؟ لكن حسها السليم نبهها إلى سخفها، فسألته: «هل تفضّل القهوة؟».

- لم لا تقضين ليلة أخرى هنا؟ يمكنك أن تذهبي إلى المكتب مباشرة في صباح الغد.

يا له من عرض مغرٍ! لعل جيرارد لن يغادر حتى وقت متأخر من هذا المساء. وستسنح لها فرصة قضاء بعض الوقت معه. لكنها قالت:

- أخبرت أهلي أنني سأعود الليلة.

- أعتقد أنّ لديكم هاتفاً. فكري في الأمر يا ميرين، ليلة أخرى على سرير مريح.

احتجّت، وأخذت مقاومتها تضعف شيئاً فشيئاً: «أنت لست منصفاً!».

ابتسم لها تلك الابتسامة التي تذيب عظامها، وسألها: «هل أطلب لك الرقم أم تطلبينه بنفسك؟».

ابتسمت له... هل باستطاعتها غير ذلك؟ وردّت عليه وقد قبلت اقتراحه: «هل تريد أن أعدّ لك ما تأكله قبل أن ترحل؟».

فرد عليها: «لن أدعك تفعلين ذلك، فهذا ليس عدلاً».

لم يمضِ وقت طويل بعد على إعدادها وجبة الغداء له!

- هل صحا ضميرك فجأة ولم تعد تريد أن أتعب! لم لا؟

- لأنني، يا عزيزتي ميرين، يجب أن أنطلق في الصباح الباكر. وأنت تحتاجين إلى نوم عميق، ولن أسمح لك بالاستيقاظ مع الفجر لتحضّري لي الفطور.

حدّقت فيه والسعادة تغمرها. وكتمت ضحكة جذلة مدويّة كادت تفلت منها حين بدأت تستوعب ما عناه بكلامه.

استفهمت منه: «هل ستقضي الليلة هنا، أنت أيضاً؟».

وذهلت من نبرة صوتها العادية، في حين كانت هي تحلّق على جناح السعادة.

سألها بجد: «هل تمانعين؟».

وأدركت ميرين عندئذ أنّ كلمة واحدة منها كافية ليرحل إلى لندن، لكنها لن تسمح لنفسها بذلك.

أجابته بتثاقل: «بالطبع، لا».

ثم أضافت كي تؤكد له أنّ مشاعرها الشخصية لا تدخل في المعادلة:

- إنه منزلك.

لكن مشاعرها الشخصية هي التي دفعتها إلى هذا الرد.

واستمتعت بكل لحظة من الساعات التي تلت. وبدا أن جيرارد يستمتع بصحبتها أيضاً. لكن أن يجد صحبتها ممتعة لا يعني أنه يكاد يقع في حبها. وعلى ضوء ما عرفته عنه، سيهرب بعيداً إذا ما خطرت في باله هذه الفكرة.

وعندما ضحكت ثانية على نكتة أطلقها، قررت ميرين على مضض أن تتركه، فنظرت إلى الساعة وشعرت بالسرور لأنها أشارت إلى العاشرة ليلاً. قالت له: «أعتقد أن الوقت حان كي أتركك تسهر وحدك».

ثم نهضت فوقف جيرارد بدوره وسألها: «هل ستخلدين إلى النوم».

- يجب أن أعرّج على البيت قبل أن أتوجّه إلى المكتب لأبدّل ملابسي. . مما يعني أنّ عليّ أن أستيقظ باكراً.

بررت له انسحابها فيما كانت تشعر بأنها مستعدة لتبادل الأحاديث معه طوال الليل، وسيبقى لديها ما يكفي من الطاقة لتقوم بعملها طيلة نهار الغد.

نظر إليها جيرارد ثم قال بعد حين: «ما من داعٍ لتبديل ملابسك فأنت مميزة كما أنت».

اعتراها حياء لم يكن في الحسبان لإطرائه هذا. ضحكت ولتظهر له أنها ليست خجلى، تقدمت منه وطبعت قبلة على خده قائلة: «لست أدري ما يفترض بي أن أفهم من هذا الإطراء، ليلة سعيدة».

ابتعدت عنه، لكن جيرارد أمسك بذراعها. فشعرت فجأة بدقات قلبها تتسارع بجنون إذ ضمّها بين ذراعيه وعانقها بشغف عناقاً طويلاً قطع أنفاسها.

عندما أفلتها تراجعت خطوة إلى الوراء وهي تترنح وتحدق فيه.

ثم قالت له وهي تلهث: «ما سبب هذا العناق؟».

أجابها بصدق: «لأنك تعامليني وكأنني خالك أو عمك».

صعدت ميرين إلى غرفتها وهي تضحك. لم يعجبه أن تقبّله على خده وكأنه خالها. استحمت واندست في السرير تسترجع ذكرياتها الحلوة، ذكريات هذا العناق الدافىء المحموم.

نامت هذه الليلة أيضاً، نوماً عميقاً لم تعكره الأحلام المزعجة. واكتشفت عندما استيقظت أن النهار قد طلع، وأن جيرارد في غرفتها!

قال معتذراً بعد أن وصل إلى الطاولة قرب السرير ووضع عليها صينية فيها فنجان شاي: «لقد قرعت الباب».

سألته وهي تهم بالجلوس: «كم الساعة الآن؟».

أجابها وهو يتأملها:

- الخامسة والنصف. سأودّعك الآن، وأترك لك مهمة إغلاق الأبواب.

أدركت ميرين بسرعة أنه سيرحل حالما يرتدي ملابسه، وأنها قد لا تراه ثانيةً.

انحنى نحوها يودّعها، فشعرت بجلدها يحترق عندما لمست يداه كتفيها وطبع قبلة خفيفة على خدها.

- إلى اللقاء!

حيّاها وبدأ يستقيم، إلاّ أنها لم تسمح له بذلك، بل أمسكت به.

جمد في مكانه، وعيناه تتساءلان عن هدفها، فيما كشّرت ميرين، وسألته بخبث: «منذ متى أصبحت خالتك؟».

وبينما راح ينظر إليها، وعيناه تحذّرانها من هذه الخطوة المجنونة، أدنته منها وعانقته. كانت تعرف أنها تفتقر إلى الخبرة، لكن مشاعرها نحوه قادت تصرفاتها.

لم تشأ أن تتركه. وفي الحقيقة، شعرت بعدم قدرتها على ذلك. راح يحدق فيها وبدا مضطرباً قليلاً، فعانقته مجدداً لأنها عجزت عن مقاومة رغبتها في ذلك.

لم تعرف ميرين ما الذي دفعها إلى هذا؟ لكن جيرارد أخذ بزمام المبادرة وعانقها بشغف وشوق، عناقاً رائعاً، جعل الدماء تغلي في عروقها.

هتف باسمها فازدادت التصاقاً به: «ميرين».

همست: «جيرارد».

وبدأت أمنيتها تتحقق عندما أحاطها بذراعيه وضمّها إليه بقوة.

أحاطها بذراعيها فشعرت بالسعادة لأنه يضمها بهذا الشغف.

لم تعِ ما إذا هتفت باسمه مرة أخرى، لكنها تنبهت للمشاعر التي

تفجّرت في داخلها.

وتسارعت نبضات قلبها بجنون عندما نظرت إليه، واختبرت أحاسيس لم تعرفها من قبل.

وفيما كان جيرارد يداعب شعرها برقة، ويلمس خديها بنعومة، أغمضت ميرين عينيها وهي تشعر بشوق أكبر إلى لمساته.

جفّ حلقها وهي تشعر بيديه تضمانها إلى صدره أكثر فأكثر. أرادت أن تعترف له بحبها، لكن الخجل أخرسها. لكنها ابتسمت له عندما حدق في عينيها الزرقاوين.

تمتم: «أنت جميلة».

ومرر يده في شعرها، ثم أكمل طريقه نحو خدها ليلامسه برقة ونعومة. هتفت باسمه: «جيرارد!».

ابتعد عنها قليلاً ثم عاد يشدها إلى ذراعيه لتلتصق به. ولكن عندما أصبحت لمساته أكثر قوة وعندما ازداد شوقهما وشغفهما، وتعاظم حبها له، استولى عليها الذعر بصورة مفاجئة ومحيّرة.

صرخت وهي تلهث: «لا!».

تصلّب جيرارد وسألها بنبرة خشنة: «لا؟».

لكن لسانها خانها. وحين نظر إليها جيرارد غير مصدق، وأدركت أن الغضب يتملكه، قالت والغصة في حلقها: «أنا.. آسفة».

- أنت.. آسفة؟

لم يصدّق ما سمعه، وأدركت أنه لم يتعرض للرفض يوماً. لكن شيئاً ما في أعماقها يتحكم بها ويدفعها إلى الرفض.

ابتعدت عنه، فتركها لشدة ذهوله.

جلست ميرين وأدارت له ظهرها، ثم قالت: «أنا.. أنت..» ولم يكن لديها أي حجة.

جلّ ما تعرفه أنها أرادت أن تبقى بين ذراعيه إلى الأبد، لكنها لم تستطع. أرادت أن تعترف له بحبها لكنها أدركت سلفاً أن ذلك لن يصلح

الأمور. فقالت له متلعثمة: «أنا.. أنت سوف.. تتأخر، لقد قلـ.. قلت إنك مضطر للانطلاق باكراً».

تمنت ميرين لو أنها لم تدر له ظهرها، وتمنت لو ترى وجهه. بيد أنها علمت أنها لن ترى في عينيه ما ترغب في رؤيته، وأنها في هذه اللحظة أبعد الناس عن قلبه.

وثبت لها ذلك من نبرة صوته عندما تكلم ببرودة وهو ينهض عن السرير: «في المرة القادمة، سوف أعتمد على منبه ساعتي ليوقظني عند الرابعة صباحاً».

ثم غادر وتركها وحيدة.

جلست ميرين في مكانها لفترة خالتها دهراً، سمعت خلالها أصواتاً شتى: وقع خطواته في الخارج، وسيارته تخرج من المرآب وتنطلق. وفجأة شعرت ببرودة تسري في عروقها وبرغبة في البكاء.

خانتها أعصابها، وانهمرت دموعها، لأنها لن تحصل على فرصة ثانية معه. لقد قضت على كل أمل لديها، إذ لم يكن من الرجال الذين يتقبلون الرفض مرتين. ولن تحصل على فرصة ثانية.

***

٧ ـ الثمن

كان أفراد عائلتها قد استيقظوا وباشروا نشاطاتهم الصباحية عندما وصلت ميرين إلى البيت. لكن أوتارهم الصوتية كانت لا تزال كسولة، مما أسعدها. لأن عقلها وقلبها كانا منشغلين بما جرى معها ولا ترغب في أي مداخلة تقطع عليها أفكارها.

وصلت إلى المكتب في الوقت المناسب، وأخذت تقوم بمهامها بشكل شبه آلي، وقد شغل تفكيرها تصرّفها.

يا إلهي!

لا بد أنه يكرهها الآن، وهذا ما لم تكن تسعى إليه وتذكّرت كم بذّلها الحب وجعلها مزاجية وسريعة الانفعال. لذلك، وفيما كانت تتحرق شوقاً لتبقى بين ذراعيه، أبعدته عنها فجأة وأدارت له ظهرها.

كانت ميرين تقود سيارتها في طريق العودة إلى المنزل، حين اكتشفت أخيراً سبب تصرفها هذا مع جيرارد. إنها تدين له بمبلغ من المال، لعل كبرياءها منعتها من الاستسلام لمشاعرها، قبل أن تعيد له ماله.

ركنت سيارتها خلف سيارة والدها، وهي مستغرقة في التفكير في جيرارد والمال الذي تدين له به. وأدركت أن عليها أن تعيد له المبلغ في أسرع وقت ممكن، فهذا الدين يفسد عليها حياتها. لقد عانقها جيرارد و...

اغرورقت عيناها بالدموع، لكنها تمالكت نفسها واصطنعت الابتسام عندما أسرعت ابنتا أخيها لتحيتها.

كادت ميرين الغارقة في أفكارها، ألا تكترث لثرثرة ابنة الثماني سنوات. لكن النبرة التي تنم عن الشعور بالذنب، ونظرات البالغين بمن فيهم كارول، إلى كويني جعلت ميرين تتنبه لما قالته ابنة شقيقها لتوها. وأدركت فجأة وجود مشكلة كبرى.

استفهمت بهدوء: «ماذا؟».

تابعت كويني وهي تنظر بخوف إلى أمها: «لم يكن من المفترض أن أخبرك! لقد قال جدي إنه سيقدّم لنا العشاء على حسابه. لكن كان من المفترض مني ومن كيتي ألاّ نخبرك، لأن الوليمة فاتتك، وقد لا يعجبك الأمر».

لم يعجب ميرين الأمر، إنما ليس لأنها فوتت على نفسها الوليمة. أدركت أن هذه الحجة وضعها الراشدون لمنع الصغيرتين من التكلم عن الوليمة، فالكل يعرف أنها لا تهتم لهذا الأمر أبداً. لكنها تعرف أيضاً أن والدها لا يملك أيّ مال سوى المبلغ الذي أعطته إياه يوم السبت. وليمة لخمسة أشخاص تكلّف أكثر من عشرة جنيهات.

وفيما أشارت كارول إلى ابنتيها بمغادرة المائدة والخروج للعب، التفتت ميرين إلى والدها. وقدّرت أن التعابير البادية على وجهها تظهر مدى انزعاجها لأنه استدان المال من خالها أموس لدفع تكاليف وليمة فاخرة.

سارع والدها إلى الدفاع عن نفسه، واستبق سؤالها عما إذا اقترض نقوداً من شقيق زوجته، فقال: «أعطاني النقود بطيبة خاطر».

طبعاً، فخالها أموس مستعد لإعطاء كل قرش يملكه. لكن هذا العذر لا يكفي، لأن خالها يعاني من العوز مثلهم تماماً. سألته دون مواربة وهي تشعر بغصة في قلبها:

ـ متى سترد له المبلغ؟

في البدء كانت تفكر في كيفية تسديد دينها لجيرارد، والآن ستضطر إلى تسديد المبلغ الذي استدانه والدها من خالها.

رد عليها والدها بجرأة: «لم يخطر في بالي أنّه عليّ أن أسدد المبلغ».

ثم تابع وقد لاحظ تعابير الصدمة التي ارتسمت على وجه ابنته: «أعني بما أنك صديقته الحميمة، وبما أنّه قدّمك إلى والديه وأمضيت معهم عطلة نهاية الأسبوع الماضي، و..».

صاحت به: «جيرارد! هل تقول إن جيرارد.. هو الذي..؟».

ـ ومن غيره ظننتِ أنني أقصد؟ أنتِ تعلمين مثلي أنه ثري، وأعلم أيضاً أنكِ أمضيت هذه العطلة الأسبوعية معه. وهكذا..

عجزت ميرين عن التفكير بوضوح، لشدة ذهولها، وسألته متلعثمة:

ـ كيف..؟

عندئذ، تدخّل شقيقها مقاطعاً: «لا تضخمي الأمر، يا ميرين، فكلنا يعرف أن صديقك وافر الثراء. ولن يضيره إعطاء أبيك مئتي جنيه».

مائتا جنيه! أحست بدوار وسألت شقيقها بحدة: «اقترضت منه المال أنت أيضاً؟».

فأجابها شقيقها: «لم تسنح لي الفرصة، رحل قبل أن نعود إلى البيت، يوم السبت».

يوم السبت! لم تستوعب الأمر على الفور. هل أتى جيرارد إلى هنا، يوم السبت الفائت؟ هل جاء إلى منزلها قبل أن يذهب إلى بريتشوود؟ حتماً لا! لا يمكن ذلك.

عجزت عن التفكير. حاولت الاعتماد على الوقائع لا على الافتراضات، فالتفتت إلى والدها وسألته: «كم؟.. ما هي قيمة المبلغ الذي اقترضته.. لا، الذي أخذته منه؟».

رد عليها والدها بسرعة ومن دون خجل: «أربعمائة».

فصاحت به وقد بلغ غضبها أشده: «أربعمائة جنيه!».

وقبل أن تتمكن من سؤاله عن سبب حاجته إلى الأربعمائة جنيه قال لها: «طلب مني أن أخفي عنك أنه جاء إلى هنا، ولكنّني لا أرى سبب ذلك. على أيّ حال، كان هذا المبلغ كل ما يحمله».

كل ما يحمله! والدها لا يطاق.

- لكنه قال إنه سيمرّ على آلة الصرف الآلي، في طريقه، كي يجلب المزيد من..

قاطعته ميرين، وقد شعرت وكأن أصابع باردة تعتصر قلبها: «في طريقه إلى أين؟».

هز والدها كتفيه بعدم اكتراث وأجاب: «أخبرته أنك رحلت منذ ساعتين، وأنك وصلت، على الأرجح، إلى نيوفورست، وهو..».

إذاً، كان جيرارد يعلم أنها في بريتشوود! ولم يعد في وسع ميرين أن تحتمل المزيد، فغادرت الغرفة من دون أن تتفوه بكلمة واحدة. والتقطت حقيبة يدها ومفاتيح سيارتها وهي في طريقها إلى خارج المنزل. لم يكن لديها أدنى فكرة عن وجهتها، لكنها لم تعد تحتمل البقاء مع الثلاثة في غرفة واحدة، حتى كارول، تغاضت بسكوتها، عما جرى.

لوّحت بيدها لابنتي أخيها اللتين لم تطلبا منها هذه المرة مرافقتها، بعد أن لاحظتا تجهّم وجهها. انطلقت ميرين بسيارتها، وهي تتخبط في دوامة. لكنها بحاجة إلى التفكير. يجب أن تسدد الدين لجيرارد بأسرع ما يمكن، وها هي الآن، غارقة في دين أكبر! كانت واثقة من أن والدها لن يسدد المبلغ الذي أخذه. وقد عرف جيرارد..

ركنت سيارتها في منطقة منعزلة بعد أن جالت دون هدف.. وبدأ الغضب الشديد يستولي عليها. كان غضبها نابعاً من الإحباط والعجز الكلي ومن إدراكها أنها عاجزة عن تسديد دينها لجيرارد. كيف استطاع والدها أن..؟ كيف أمكن لروبرت.. وكارول.. أيضاً! وما دور جيرارد؟ وكلما زاد استياؤها من عائلتها، وكلما أمعنت التفكير في دور جيرارد كلما تحوّل غضبها الجامح نحوه!

عندما أعادت التفكير في الأمر، وعندما استفاقت من صدمة ما فعله والدها. كيف أمكنه أن يست.. أن يأخذ أربعمائة جنيه من رجل لا يكاد يعرفه، ومن دون أن يفكر في تسديدها..؟

حبست أنفاسها. فهي لم تكن تعرف شيئاً عن جيرارد عندما أخذت منه الألفي جنيه. أبعدت هذه الفكرة غير المرغوب فيها عن ذهنها. فهي ستسدد الدين لجيرارد، حتى آخر قرش.

لكن جيرارد! عرف أنها في بريتشوود! ولم ينطق بكلمة عن زيارته إلى منزلها يوم السبت، كما أنه طلب من والدها ألاّ يأتي على ذكر ذلك. وهذا يعني أن نواياه ليست سليمة وأنه ليس بريئاً.

لقد عرف جيرارد مسبقاً أنها في المنزل الذي يملكه في نيوفورست. عرف ذلك قبل أن يغادر لندن!

فهل وضع خطة محكمة لإغوائها؟ وشعرت فجأة بالغثيان. لا، لا يمكنها تحمّل ذلك.

كلما أمعنت التفكير في الأمر، كلما زاد اقتناعها بأنه خطط للأمر. حالما أخبره والدها عن مكانها، خطط جيرارد لإغوائها وكادت تقع في الفخ. حسناً لم يتسرّع ولم يستعجل الأمر أو يتهوّر، بل تصرّف بحنكة. كان يعي تماماً عدم خبرتها، وبدا جلياً أنه قرر أن يغويها تدريجياً وببطء، حتى تصبح طيّعة بين يديه مع حلول الصباح. أما هي، فجرفتها مشاعرها، واستسلمت لأحاسيسها إلى أن أيقظها عقلها الباطن من غفوتها قبل فوات الأوان.

لقد خطط جيرارد للأمر، طوال الوقت. عرف أنها هناك. وكلما فكّرت في الأمر، كلما زاد غضب ميرين. استعرت نيران الغيظ في داخلها، نار لن تخمدها سوى مقابلته لرد الصاع صاعين وإخباره عن رأيها فيه. قد لا تجده في بيته، لكن فيما كانت تدير محرك سيارتها، أدركت أنها غاضبة بما يكفي لتوقف سيارتها أمام منزله وتنتظر عودته مهما طال غيابه. وافترضت أنه سيعود إلى المنزل ولن يصطحب تلك التي خرج معها إلى نيوفورست لختام السهرة.

أدركت أنها مرهقة جداً ويجب ألا تقابله، بانتظار أن تهدأ أعصابها. لكنها علمت أنها لن تشعر بالراحة قبل أن تُسمع جيرارد مونتغمري بعض

الكلمات الحادة التي تشفي غليلها.

بقي غضب ميرين على حاله عندما وصلت إلى منزله الراقي. نزلت من سيارتها. وحين وضعت مفاتيحها في حقيبة يدها، لمست مفتاح منزل جيرارد الآخر، فأمسكت به واندفعت لتقرع جرس الباب. توقعت ألاّ تجده في المنزل، لكنها قرعت الباب ثانية بفروغ صبر.

فتح الباب، وظهر جيرارد بقامته الطويلة وشعره الأسود الفاحم وعينيه الرماديتين ووسامته الأخّاذة. كانت ميرين قد نسيت في ثورة غضبها كم تحبه، لكن مشاعرها نحوه فاضت عندما رأته أمامها. وزحف الاحمرار الحار إلى وجنتيها.

قالت له بإيجاز: «أريد التحدث إليك!».

فأجابها: «مساء الخير، يا ميرين. كيف حالك؟».

- يجب أن نتحدث! و..

قاطعها ببرودة: «يبدو أنه أمر لا يحتمل التأجيل».

وراحت نظراته تقوّمها عندما أضاف: «بما أنني لا أتشاجر عادة عند عتبة داري، ربما من الأفضل أن تدخلي إلى المنزل».

كرهته في هذه اللحظة. كان بارداً فيما كانت هي تغلي من الغضب. تجاوزته واندفعت دون أن تنتظره باتجاه غرفة الاستقبال. سمعت صوت الباب الأمامي يغلق فاستدارت لتواجهه.

سألها وهو يبتسم بانشراح: «هل لي أن أقدّم لك شراباً، فأنت تبدين حامية بعض الشيء».

ردّت عليه بتسرع لتعلمه عن هدف زيارتها: «هذه ليست زيارة اجتماعية».

ثم وضعت بقوة مفتاح بريتشوود الذي تحمله على طاولة قريبة وهي تقول له بحدة: «خذ، هذا مفتاح عشك الغرامي».

تقدم جيرارد نحوها، وأصبح على بعد خطوات منها، وراح ينقّل نظراته الثاقبة بين المفتاح ووجهها الغاضب. وفجأة، أضحت ملامح

وجهه أكثر رقة.

غمغم بنبرة لطيفة متفهمة: «ميرين. أنتِ في هذه الحالة بسبب ما جرى هذا الصباح. وقد أصبت بالذعر في آخر لحظة لأنك ما زلت فتاة بريئة و..».

قاطعته بسرعة: «لا. أنت..».

كيف يمكنه أن يتكلم بهذه السهولة وهذه الواقعية عما كاد يجري بينهما هذا الصباح؟ أدركت أن لون وجهها استحال أحمر، فانفجرت به قائلة:

- ما جئت من أجله لا علاقة له بهذا الموضوع.

أدركت ميرين، وبعد فوات الأوان، أنها تسرعت في قولها ذلك بسبب توترها وغضبها. فكل ما يجري متعلق بهذا الموضوع.

استفهم منها بنبرة لطيفة: «ألم تأتي لكي تعتذري؟».

تعتذر! سوف تقتله!

صرخت به: «أنت من يجب أن يعتذر. أنت..».

قاطعها قائلاً: «ماذا فعلت لك؟».

وتابع قبل أن تتمكّن من الرد: «لا يمكنك أن تغضبي لأنك أصبحت تعرفين على وجه اليقين أنك أنثى مغرمة وأنك...».

قاطعته عند هذه النقطة وصرخت به بصوت مرتفع: «عرفت ذلك من قبل».

- إذاً...؟

لم تسمح له بإكمال كلامه، فقالت: «لكن ما لم أكن أعرفه هو أنك خططت للحاق بي وأنك..».

ردد: «خططت له؟».

ولاحظت أن تعابير التفهّم اختفت عن وجهه.

لكنها لم تكن مستعدة بعد للإصغاء لكلمة واحدة منه.

فتابعت بصوت أشبه بالفحيح: «وأنك كنت تريد الإيقاع بي!

وأنك. . .».

لاحظت أن عينيه قد ضاقتا ولم تعجبها الطريقة التي راح ينظر بها إليها.

سألها بإصرار: «هلاّ أخبرتني، بحق السماء، عـمّ تتكلمين؟».

كادت تصدّقه. كادت تصدق أنه لم يكن لديه أي فكرة عما تتكلم. ولكنه قصد المنزل، وطلب من والدها ألاّ يذكر زيارته. وعثر غضبها على الحافز الذي يحتاجه. ألم تعترف بأنها أكثر الناس سذاجة؟ لا، لن تلدغ من الجحر ذاته مرتين.

أجابته بعدوانية ظاهرة: «لقد سمعتني! وأنت تعرف عما أتكلم!».

خرجت عن طورها عندما أدركت أن هذا الرجل الذي يقف قبالتها والذي يتميّز بذكائه، يبدو حائراً ولا يفهم ما ترمي إليه. فاندفعت إلى المعركة بتحدٍ ظاهر وسألته: «كيف تجرؤ على إعطاء والدي المال؟».

حسناً، لقد فهم. إلا أنها لم تكن ممتنة له أو لجوابه، عندما تمتم:

ـ إذن، هذا كل ما في الأمر.

بدا جلياً أنه يكره الإجابة عن الأسئلة ويرتاح أكثر لطرحها: «على ما أذكر، لقد أقرضتك بعض المال أيضاً».

الحقير! النذل الحقير! إنها بغنى عن أن يذكرها بتلك المسألة.

ردّت عليه وهي تنتفض حنقاً، ودون أي تفكير: «لكن أبي لا يستطيع سداد المبلغ».

ـ أنا لا أقصد إظهار عدم الاحترام، لكن هل تستطيعين أنتِ؟

لقد أوقعت نفسها في الفخ، وهي تعي ذلك تماماً. كما تعرف أنها تتخبط للخروج من مأزقها وهي التي أملت أن تخرج منتصرة. لكنها أكثر صلابة، ولن تكتفي بالاستدارة على عقبيها والخروج من هنا، رغم علمها بأن هذا ما عليها أن تفعله.

جاءت إلى منزله لتقول له رأيها فيه وما يدور في خلدها، ولن تتزحزح قبل أن تفعل ذلك. ولهذا، صبت جام غضبها عليه: «ليس بالاستسلام

لرغباتك، فهذا ما لن أفعله!».

لم يعجبه كلامها ولاحظت أن وجهه اكفهر. لكنها لم تهتم لذلك، بل تابعت تقول: «لم ترغب في أن يخبرني أبي بزيارتك إلى بيتنا يوم السبت. وكم كان لطيفاً منه أن يخبرك عن مكان وجودي، المكان الملائم لبعض الإغواء و. . .».

قاطعها بغضب: «لا تكوني سخيفة!».

وجعلت كلمته هذه نيران غضبها تستعر ليصل لهيبها إلى السماء.

صرخت به: «سخيفة! كدت تنال مأربك مني، أليس كذلك يا مونتغمري؟».

تلعثمت، وكادت تفقد صوابها وتجهش بالبكاء، لكنها تابعت تقول:

ـ ماذا عليّ أن أفعل لأسدد الأربعمائة جنيه الإضافية؟

توقفت عن الكلام، فيما تقدم منها خطوة جعلته قبالتها مباشرة. أمسك بذراعها وقد تحوّل غضبه إلى ثورة عارمة. فسحبت ذراعها من قبضته بحدة وقالت: «هل هذه الأربعمائة تتطلب مني الاستسلام نهائياً؟».

ـ أنت. . .

صرخت به: «سخيفة؟ لا، ليس من وجهة نظري!».

وشعرت بكره شديد له عندما قبض على ذراعها ثانية. حاولت أن تنتزعها لكنه لم يدعها تفعل وظل ممسكاً بها.

ـ لقد عرفت أنني هناك. هناك في برينشوود. عرفت، واعتقدت أنها الفرصة المناسبة لنيل مآربك من هذه العذراء. .

قاطعها بحدة: «لقد تخطيت الحدود! وليس لديك أدنى فكرة عما تتكلمين عنه. لقد أسأت فهم دوافعي، صدّقي إذا شئت أو لا تصدقي».

حاولت، وقد فقدت صوابها مرة أخرى، أن تنتزع ذراعها اليسرى من قبضته. لكنه أبى بعناد أن يفلتها بعد أن أخذ منه الغضب مأخذاً كبيراً، فما كان منها إلاّ أن صفعته بيدها اليمنى لتنفّس عن خيبتها.

كان ذلك غلطة كبيرة. أدركت ذلك لحظة أنزلت يدها على خده،

فجيرارد ليس من الرجال الذين يدعون مثل هذا التصرف يمر دون عقاب.
تطاير الشرر من عينيه الرماديتين وهو يحدّق في عينيها الزرقاوين اللامعتين، فأمسك بذراعها الأخرى وشدّها إليه، لا يثنيه عن ذلك شيء.

ـ لا!

شهقت، فيما كان يضمها إليه بقسوة، وقد توضّحت لها نواياه.

لكنه لم يبالِ بصراخها، وقال لها: «بما أنني لا أستطيع أن أرد التحية بمثلها، يجب أن تتلقي بدلاً عنها».

لم يفسح لها المجال للرد، بل عانقها عناقاً غاضباً أشبه بالعقاب.

لم تشأ أن يعانقها بهذه الطريقة، فحاولت أن تركله لتبعده عنها، لكنها أخطأت الهدف.

حاولت أن تحتجّ وأن تبتعد عنه، لكن طوقه أطبق عليها أكثر فأكثر.

قاومته، ولكمته حيث استطاعت. لكنها لم تنجح في فك الحصار لأنه بقي قابضاً على ذراعيها.

بدأ عناقه بلطف هذا الصباح قبل أن تستعر نار الأحاسيس الجامحة فيهما. أما الآن فعناقه غاضب وعدائي، لا ينمّ عن أيّ محبة. وهو بعيد كل البعد عن الحب الذي تتمناه.

الحب؟ هل هي غبية؟ قاومته بعنف وصاحت به: «كفّ عن ذلك، يا مونتغمري!».

انفجرت به عندما حصلت على فرصة غير أنه في ذلك الحين لم يتبق مجال لمرور ضوء النهار بينهما لأنه كان يضمها إليه بشدة.

أجابها بنبرة هازئة عكست غضبه: «حالما أنتهي! لقد بدأت المعركة يا شبرد، فليكن عندك حد أدنى من اللياقة ودعيني أنهي الأمر».

ـ اللياقة!

أبت أن تنصاع له وأن تتوسل إليه ليتركها بل قالت له: «وما الذي تعرفه عن الليـ..».

لم يدعها تكمل جملتها، إذ وضع يده على فمها، وأدناها منه أكثر.

غير أن غضبه بدا أقل حدّة هذه المرّة، إذ حلّ مكان العناق العنيف الغاضب، عناق لطيف رقيق.

أمرته قائلة:

ـ كف عن ذلك فوراً.

لكن لهجتها لم تكن شديدة كما أرادتها.

حدقت فيها العينان الرماديتان وقد زال انقادهما، وقال لها: «اطلبي مني ذلك بلطف».

ـ اذهب إلى الجحيم!

استطاعت أن ترد عليه بشق النفس. وبعد ذلك لم تسنح لها الفرصة لتضيف أيّ كلمة أخرى، لأن جيرارد ضمها بين ذراعيه مجدداً، وقد اختفت عدائيته كلياً وأصبح عناقه أكثر رقة. وأخذ الأمر يلتبس على ميرين.

أرخى قبضته، وعندما أصبح باستطاعتها أن تدفعه عنها، وأن تحرر نفسها من قبضته اكتشفت أنها تلتصق به بدلاً من أن تبتعد عنه. أخذت تتجاوب معه، لتجد النعيم بين ذراعيه.

همست باسمه وقد فارقتها العدائية مثلما فارقته: «جيرارد».

ضمها إليه، فشعرت بالسعادة بين أحضانه. هذا هو الملجأ الذي ترغب أن تكون فيه. أخذت نيران مشاعرها نحوه تستعر في داخلها من جديد فيما راحت ذراعيه تشدانها إليه أكثر.

حضنها بشوق وشغف، فأسعدها الأمر، لأنها مرت بيوم عصيب وحضنه الدافىء هو السلوى التي تحتاج إليها.

تمتم في أذنها: «يا حبيبتي الصغيرة».

قادها إلى إحدى الأرائك في الغرفة، وزال العداء بينهما فيما كان يضمها إلى صدره الحنون.

جرفتها مشاعرها نحو جيرارد، فهي تحتاج إليه كثيراً. تحتاج إلى ذراعيه القويتين لتسنداها. ومنذ وقعت في حبّه أصبح عالمها بارداً من

دونه.

حدقت مسحورة في عينيه الجميلتين وفي وجهه الذي ينبض بالرجولة، وبدا مثلها مسحوراً ببشرتها الحريرية وعينيها الواسعتين.

هكذا كان حبها له، قوة تجرفها، تحمل معها قواها العقلية فتعطل عملها. وشعرت برغبة في الإفصاح عن مشاعرها.

أرادت أن تخبره عن حبها له. لكنها شعرت بالخجل. وأقرت لنفسها أن الحياء أمر غريب في مثل هذه الظروف. فتحت فمها لتقول:

ـ أنا...

ابتعد جيرارد عنها، وقد ارتسمت على وجهه تعابير رقيقة وقال مستفهماً: «أنت..؟».

تنهدت ثم قالت: «أنا سعيدة».

عانقها برقة لكنه ابتعد ثانية لينظر إليها وسألها بإلحاح: «هل أنت متأكدة يا ميرين؟».

استغربت أن يطرح مثل هذا السؤال. أليس ذلك واضحاً؟ ترددت، وارتبكت وعجزت عن النطق بغير كلمة: «أنا.. أعني..».

ولم تحتج لقول المزيد، لأن جيرارد شعر بترددها، فابتعد عنها! أدار لها ظهره وهمّ بالوقوف.

فتحت فمها لتهتف باسمه ولتعلمه مرة أخرى بأنها سعيدة معه، وأنها تحبه وتود البقاء في أحضانه. نعم، لقد ارتبكت قليلاً، لكن..

لكنها لم تحصل على هذه الفرصة، لأن جيرارد اتخذ قراره وقال لها بتصلب: «من الأفضل أن تذهبي».

قالت وكأنها صدى صوته: «أذهب؟».

لا يمكنه.. لا يمكن أن يعني ما قاله! إنما يبدو أنه عنى ذلك.

أشار عليها بحدة: «ارحلي الآن».

بقيت ميرين تحدّق في ظهره لثوان وقد تملكها الذهول، ثم تحركت كبرباؤها، من خلال حيرتها. لقد أمرها بالرحيل! إنه يطردها! هي

بالذات! إنه يرمي بها إلى الخارج.

هبّت ميرين على قدميها. لا، لن تتلكأ كي لا يطلب منها الرحيل للمرة الثالثة. وراحت تبحث عن جملة تنقذ بها الموقف، لكن عقلها المذهول رفض مساعدتها.

انطلقت في طريقها على عجل، وخرجت من منزله دون أن تنبس بكلمة واحدة.

وفيما كانت تقود سيارتها بصورة آلية نحو منزلها، عاد عقلها إلى العمل وعادت إليها القدرة على التفكير. شعرت بألم ومرارة من كل ما جرى.

الآن، عرفت معنى الشعور بالرفض. ولا يجدي نفعاً أن تقول لنفسها إنه ما كان عليها أبداً أن تضع نفسها في هذا الموقف.

تابعت ميرين قيادة السيارة والتفكير يعذبها. جيرارد، الرجل الذي تحبه، رفضها! ردّ لها التحية ورفضها. لقد ردّ لها الصاع صاعين.

وراحت أفكارها تتضارب ثانية، فمالت إلى جانب الطريق وأوقفت سيارتها لتحاول تمالك نفسها. وأدركت فجأة أن عقلها الباطن ذكّرها بالمبلغ الذي تدين به لجيرارد، فمنعها هذا الصباح من الاستسلام لمشاعرها الجارفة، لكنه توقّف عن العمل الليلة، وبدا ميتاً.

فكرت في وقت لاحق أنها لم تعرف إلا القليل القليل، لكن جيرارد اتهمها بأنها أساءت فهم دوافعه. ولم تستطع أن تتصور الدافع الآخر الذي جعله يطلب من والدها ألاّ يخبرها عن زيارته لهم يوم السبت. كان إغواؤها في باله عندما لحق بها إلى بريتشوود، وهي واثقة من ذلك. ولكنها لم تكن متأكدة مما إذا صمم جيرارد أن يسقيها من الكأس نفسه، بسبب رفضها له.

انطلقت ميرين بسيارتها فيما التفكير في النقود والإغواء والرفض يشغل بالها، وتوجهت مجدداً نحو البيت. لكنها أدركت أنها لا ترغب في الذهاب إلى المنزل، فهي غير مستعدة لرؤية والدها وشقيقها وزوجته

ثانية. كما لم تعد تشعر بأن المنزل الذي نشأت وترعرعت فيه بيتها وملاذها.

ولو كانت تملك المال، لاختارت أن تبيت في فندق. ها هي كلمة «المال» المقززة تطلّ برأسها القبيح من جديد، فتزيدها تصميماً على تسديد دينها ودين أبيها لجيرارد.

لن تقابل جيرارد مجدداً، لكنها ستسدد له ماله، سوف تقتصد وتعمل في العطل الأسبوعية، وتجمع كل قرش. . وكلما أسرعت في الأمر، كلما كان ذلك أفضل.

وهكذا، أضحى إنفاق المال للمبيت في فندق مسألة غير مطروحة. فتوجّهت، بعد ذلك، وبشكل غريزي، إلى كوخ الرجل الذي لطالما كان بمثابة الأب بالنسبة إليها أكثر من والدها الحقيقي.

- خيّل لي أن الصوت الذي سمعته صوت سيارتك.

ابتسم لها خالها أموس عندما فتح الباب، فردت عليه: «خشيت ألاّ تكون مستيقظاً».

أجابها وهو يتأمل مظهرها العام وشحوب وجهها: «كنت أحاول أن أحلّ إحدى المسائل. ادخلي يا حبيبة قلبي، تعالي لنرَ إن كان باستطاعتي أن أجد حلاً لمسألتك».

هل ما حلّ بها واضح لهذه الدرجة؟ لحقت ميرين بخالها إلى غرفة الجلوس، ولاحظت أن طاولة الرسم مفتوحة ومغطاة بورقة خُطت عليها رسوم معقدة، فيما أوراق أخرى مختلفة تحمل معادلات رياضية متناثرة هنا وهناك.

- أنا آسفة لأنني أزعجتك. كنت أتساءل عما إذا كان بإمكاني أن أمضي الليلة عندك، وأن أنام على الأريكة.

وشعرت بحبها لخالها يتضاعف عندما قال لها بهدوء: «يا عزيزتي، لقد نظفت غرفة النوم الثانية، حالما علمت أنك تعرّضت لغزو روبرت وأسرته. والغرفة جاهزة منذ ذلك الحين».

همست وهي تقاوم الدمع الذي ترقرق في عينيها: «أوه، يا خال».

- ما دام الأمر قد وصل إلى هذه الدرجة من السوء، فمن الأفضل أن أحضّر إبريقاً من الشاي.

عندئذ، استطاعت أن تجد في خضمّ قنوطها ابتسامة صادقة له.

كانا يحتسيان الشاي عندما تنبّهت ميرين إلى أمر نسيته. ورغم عدم رغبتها في العودة إلى المنزل، قالت بيأس: «يجب أن أتصل بالبيت لأخبرهم أنني هنا معك».

- هل تودّين أن أفعل ذلك بدلاً منك؟

قالت له: «أنا لا أستطيع أن أدعك. .».

لكن خالها الحبيب أمسك بسماعة الهاتف وطلب الرقم.

استنتجت ميرين من نبرة خالها، أن والدها هو الذي ردّ على المخابرة، لأن إموس ياردلي الذي لا يخفي نفوره من زوج أخته، قال: «ستنام ميرين عندي الليلة. وإذا عاد الأمر لي، لاستبقيتها حتى تخليا لها البيت».

أعاد السماعة إلى مكانها وكشّر في وجهها عندما لاحظ أنها تبدو مرتاعة بعض الشيء، ثم استفهم منها بخبث: «كنت تظنين أنني عجوز هرم؟».

- حسناً، أنا. .

- وهل كنت ستتكلمين بطريقة ألطف مما فعلت؟ بالطبع ستفعلين. لكنّني أعرف والدك أفضل منك، وهو الذي اخترع مقولة: أعطني قيراطاً وسآخذ عشرة قراريط. أنت تشبهين أمك، في حين أن شقيقك نسخة طبق الأصل عن أبيك.

حاولت ميرين أن تدافع عنه فقالت: «يمرّ روبرت بظروف صعبة في الوقت الحاضر».

فرد عليها أموس ياردلي بكل هدوء: «وأنتِ كذلك يا حبيبتي. هل تودين أن تخبريني بهمّك؟».

ـ أنا.. لا أستطيع.

فرغم حبها الكبير لخالها، يبقى حبها لجيرارد ورفضه لها مسألة شخصية، لا يمكنها أن تفصح عنها. لكن خالها لم يكن ليصرف النظر عن المسألة بسهولة: «أنا لا أتطفل، يا عزيزتي، صدقيني. لكنني أحبك كثيراً ولن أدعك تخلدين إلى النوم وأنت منزعجة».

ارتسمت على وجهها ابتسامة باهتة وقالت: «أوه يا خالي! لقد ساعدتني فعلاً حين سمحت لي بالمبيت هنا».

تجاهل ما قالته وراح تفكيره العلمي المنطقي ينقّب، فوضع يده على الجرح: «متاعبك لها علاقة بالمال، أليس كذلك؟».

حاولت أن تنكر، لكنه تابع: «كانت حالتك المادية جيدة قبل أن ينتقل شقيقك وعشيرته للإقامة معك ثم لحق بهم والدك».

لطالما عرفت ميرين أنه رجل ذكي. لكن خالها أظهر تبصراً أكبر عندما أضاف: «كلاهما معوز، ويستنزفان راتبك على الأرجح. يريدان منك أن تبيعي خاتم أمك، أليس كذلك؟ وهما يظنان أن لهما الحق في اقتطاع حصة من ثمنه».

نظرت ميرين إليه بحزن. كان يعرف أهمية هذا الخاتم بالنسبة إليها، فقالت: «آه، يا خالي أموس. لقد بعته».

وبكت. لقد وضع يده على الجرح، ووجدت ميرين حصونها تتداعى، تحت ضغط كلامه الطيب، واختفت قدرتها على المراوغة والادعاء. روت لخالها كيف باعت الخاتم، وكيف سلبت منها النقود أمام بيت جيرارد.

أبدى آموس باردلي رأيه: «لقد أعجبت به».

لكن ميرين أحبّت جيرارد، ولا تزال تحبه، رغم رفضه لها. وتمنت لو تكف عن حبه، لأن الألم الذي يعتصر فؤادها لا يحتمل.

سألها خالها إن كان جيرارد قد ساعدها، فوجدت نفسها تعترف له بأنه ساعدها مادياً.

وقال متسائلاً: «مضى على ذلك شهران، أليس كذلك؟».

ـ تقريباً.

ـ إذاً ماذا حدث الليلة وأزعجك إلى هذه الدرجة؟

لا يمكنها أن تخبره. لا يمكنها أن تخبر أحداً عن حبها لجيرارد. لكنها أخبرت خالها أنها اكتشفت أن والدها زاد ديونها وختمت كلامها:

ـ وقد عدت لتوي من بيت جيرارد حيث قصدته بهذا الشأن.

أدركت أن خالها اكتشف مشاعرها نحو جيرارد، لأنه قال مواسياً: «يا حبيبتي المسكينة، أنت تهتمين لأمره، وقد تشاجرتما بسبب النقود التي أعطاها لوالدك».

كان خالها يعرف، مثلها تماماً، أن والدها سيعتبر النقود التي أخذها من جيرارد بمثابة هدية، وليس قرضاً.

ردت: «شيء من هذا القبيل».

ـ حسناً، لا نستطيع إصلاح الأمور الليلة، لهذا أقترح أن نأوي إلى الفراش. ونام ملء جفوننا، وسنرى في الصباح ما يمكننا فعله.

لم تنم ميرين جيداً، إذ راحت تستعيد في ذهنها الإحباط الذي أصابها من جرّاء فعلة والدها، وديونها المتزايدة. وشعرت أنّ أحشاءها تتمزق مجدداً حين عادت بها الذكرى إلى رفض جيرارد لها وقيامه بطردها.

استيقظت ميرين باكراً، وكذلك فعل أموس باردلي. لم يكن يرتدي ثياب العمل التي اعتاد أن يرتديها، بل ارتدى القميص الأبيض المجعّد، والبذلة الوحيدة التي يملكها. ولمّا لاحظ الهالات السوداء حول عينيها بادرها بحنان: «لا أظنني بحاجة لأن أسألك كيف نمت. فقد عانيت أنا أيضاً من الأرق».

ـ ألم ينجح اختراعك الأخير؟

ـ هذه ليست مشكلتي، فقد وجدت لها حلاً. لهذا، هل يمكنك أيتها الشابة أن تحصلي على إجازة من العمل اليوم، خدمة «لخالك؟».

رمشت ميرين بعينيها وسألته: «لمَ الإجازة، فأنا، في حالة جيدة».

- يجب أن أهتم ببعض الأعمال، وسيسرني أن تحزمي أمتعتك وتحمليها إلى هنا.

حدّقت ميرين فيه.. إنها لا تشعر برغبة في العودة إلى البيت هذا الصباح ولكن..

- سأكون ممتناً إذا حضّرت لنا المشاوي، مثلما اعتادت أمك أن تفعل. ولن يكون لديك الوقت الكافي للقيام بذلك، إذا ذهبت إلى العمل.

نظرت ميرين إليه.. إلى الرجل العزيز الذي كان بمثابة والد لها. فكّرت في العمل الذي ينتظرها في المكتب. يمكن لأي موظف آخر أن يحل مكانها بسهولة اليوم. هل ترغب حقاً في الانتقال إلى منزل خالها أموس؟ وفجأة، بدت لها هذه الفكرة كأفضل فرصة حصلت عليها منذ أمد بعيد!

ردّت مبتسمة: «سمعاً وطاعة».

- في كل شيء؟

ردت بالإيجاب: «في كل شيء».

- هذا عهدي بك يا فتاتي.

كان صباح ميرين مليئاً بالأعمال، وسرّها أن تكون مشغولة فهي تحتاج لأن تعمل كي لا تفكر في جيرارد. استغلت غياب خالها لتنظيف البيت بأكمله، لكنها لم تجرؤ على تحريك أيّ ورقة من أوراقه التي يبدو أنه يعرف مكان كل واحدة منها.

وحالما انتهت من التنظيف والمسح والتلميع، توجّهت بسيارتها إلى المنزل الذي كانت حتى البارحة تعتبره منزلها. ولم يبدُ على والدها أو شقيقها الانزعاج لانتقالها من المنزل، بيد أن كارول لاطفتها وقالت لها إنها ستفتقدها.

كان خالها قد أنهى أعماله حين رجعت إلى منزله. وعندما رأت سيارته، تركت حقائبها وأغراضها في سيارتها ودخلت إلى المنزل لمقابلته.

كان قد خلع بذلته ليرتدي ثيابه المعتادة، وقال لها حالما شاهدها:

- اجلسي يا ميرين، أود أن أقول لك شيئاً.

ولم تسنح لها الفرصة لجلب أمتعتها من السيارة، إذ راح يكشف لها أسراراً غابت عنها. أول تلك الأسرار أنه يملك المنزل الذي لطالما أقامت فيه مع والدتها.

حدقت ميرين فيه مذهولة، وسألته: «أنت تملك المنزل! وليس أبي؟».

- لقد اعتقد أنه يملك المنزل. ولذا، أسرع بالعودة ليتحقق من ذلك، حالما وصلته رسالتك التي أخبرته فيها أنكم تقيمون جميعاً في المنزل. اعتقد أنني نقلت ملكية المنزل إلى والدتك، وبما أن والديك لم ينطلقا قبل وفاة أمك المفاجئة، فسيؤول المنزل إليه بصورة آلية.

رددت ميرين: «أنت تملك المنزل».

وحاولت أن تمحو من ذهنها الصورة التي رسمتها لشقيق والدتها على أنه الرفيق الدائم للفقر المدقع.

أجابها: «لطالما فكّرت في التنازل عن المنزل لأمك. فلقد اشتريته لها، عندما لاحظت أن لويس شبرد لن يوفّر لها ما يتوجب عليه توفيره كزوج. اعذريني يا عزيزتي، لم أشأ أن أخبرك من قبل لأن والدك لم يكن زوجاً طيباً لشقيقتي. وعندما بدأ بعاملها بسوء، أردت أن أتأكد من أنه لن يبيع المنزل دون علمها».

رددت ميرين مرة أخرى، فيما كانت تستفيق من ذهولها: «ولكنه ملك لك».

- كان في نيتي، عندما توفيت والدتك، أن أنقل ملكية المنزل إليك. وبالرغم من أنك لم تشاهدي والدك منذ فترة طويلة، كنت واثقاً من أنه سيخرج من مخبئه يوماً ما، ليلتصق بك كالعَلَقة. لقد أخطأت في تصرفي معك، إذ كان عليّ أن أتصرف بدلاً من أن أكتفي بسؤالك عما إذا كان لديك ما يكفي من المال.

علت وجهه ابتسامة لطيفة وتابع يقول: «لكني حللت هذه المسألة هذا الصباح».

اكتشفت ميرين أن الصدمات والمفاجآت لم تنتهِ لهذا اليوم، عندما أضاف: «قصدت وكلائي المحامين وكتبت وصية، أنتِ المستفيدة منها. ثم ذهبت إلى المصرف الذي تتعاملين معه وأودعت في حسابك عشرة آلاف جنيه».

كانت ميرين تنظر إليه وهي عاجزة عن النطق، حين أضاف: «سأعطي شقيقك مثل هذا المبلغ، لأن أمك، كانت ترغب في أن أفعل ذلك».

شهقت ميرين، في حين قهقه خالها وهي تقول: «ولكن.. لكن لم أكن أعرف أنّ لديك مالاً!».

- لأنني غالباً ما أظهر بمظهر المتسكّع؟ ولا أملك سوى بذلة واحدة. ولِمَ أحتاج إلى بذلة أخرى؟ أنا سعيد كما أنا. أذهب مرتين في السنة لمقابلة الصناعيين، وإذا ما أثارت اختراعاتي اهتمامهم، يأتون لمقابلتي.

- اختراعاتك.. هل هناك من يهتم..؟

أجابها خالها بتواضع وهو يبتسم: «من وقت لآخر. وفي الحقيقة، أنا أبلي بلاءً حسناً».

وشعرت ميرين بالذنب لأنها لم تعرف ذلك قطّ. كما أنّه لم يتفاخر بأنه باع أيّاً من اختراعاته.

- وهكذا يا عزيزتي، لديّ بعض المال.

وجدت صعوبة في استيعاب ما قاله لها: «نعم، ولكن.. لا أستطيع أن آخذ مالك يا خالي. أنت، ربما..».

سألها بحدة غير معهودة منه: «ألم تسمعيني يا ميرين؟ أنت وريثي ولا أجد ضيراً في إعطائك بعض المال مقدماً. في الواقع، أعطيتك أكثر من حاجتك لأنني واثق من أن والدك سيطلب منك المال مراراً وتكراراً».

سألته وهي لا تزال تجد صعوبة في تصديق ما كشفه لها: «هل في وسعك التخلي عن عشرة، لا بل عن عشرين ألف جنيه؟».

- أوه، نعم، ثقي أنني أستطيع ذلك.

واضطرت ميرين للاكتفاء بهذا القدر. لكن سؤالاً أخيراً شغل بالها:

- لماذا لم تذكر أمي أنك تملك المنزل الذي نقيم فيه؟

فأجاب خالها: «لأن أمك امرأة طيبة بطبيعتها، وكانت لتفعل أي شيء كي لا تعرفي أن لويس شبرد لم يكن زوجاً وأباً صالحاً. ولم يكن في وسعها أو من شيمها أن تسوّد صفحة أبيك أمامك».

نظرت ميرين إليه وتذكرت فجأة أمراً آخر: «إذاً، لم يكن أبي من يرسل لنا المال حين كنا نمر بضائقة مادية، أليس كذلك؟».

رد عليها: «كانت أمك امرأة عزيزة النفس إلى أقصى حد، مثلك تماماً. ولم تسمح لي بأن أقدم لها أكثر مما تحتاجه. والآن، ألا يتوجب عليك أن تحرري شيكاً قبل أن تبدئي بتحضير العشاء».

هتفت ميرين وقد فهمت ما يرمي إليه، ونهضت عن مقعدها لتقبّله:

- أوه يا خالي، شكراً.

كان رأسها يضج بما اكتشفته، عندما ذهبت إلى سيارتها لإحضار أمتعتها. وبما أن الكوخ صغير، لم تحمل معها من منزلها القديم كل ما تملكه. وجدت في غرفتها دفتر شيكات، فتنازعتها الأفكار بشأن أنضل طريقة تعيد بها المال لجيرارد.

أدركت أنها مثيرة للشفقة، لكنها شعرت بحاجة ملحة لرؤيته من جديد، بالرغم من الطريقة التي افترقا بها، وطريقة رفضه لها. وهذا ما دفعها إلى التساؤل، هل كانت هذه الحاجة الملحة أحد الأسباب التي دفعتها إلى الذهاب إلى منزله الليلة الماضية؟ لقد كانت غاضبة وثائرة. لكن، حين رأته...

وفي هذه اللحظة تحرّكت كبرياؤها واستفاقت من سباتها. يا للسماء، هل تفكر حقاً في مقابلته ثانية. بعد تلك الطريقة التي عاملها بها الليلة الماضية؟ تمالكي نفسك يا فتاة!

تمالكت ميرين نفسها ولكنها ترددت وهي تكتب اسمه على الشيك.

حررت الشيك بسهولة، ولكنها أعادت كتابة رسالتها مرات عدة، وفي النهاية استقرت على:

عزيزي جيرارد

أعتقد أن الشيك المرفق يصفّي الحساب بيننا

مع جزيل الشكر

المخلصة، ميرين

كتبت اسمه وعنوانه على المغلف ووضعت فيه رسالتها القصيرة وشيكاً بألفين وأربعمائة جنيه. ثم توجهت بسرعة إلى البريد لإيداعه.

وفي صباح اليوم التالي ذهبت ميرين إلى عملها، وهي لا تزال تحاول التأقلم مع فكرة أن خالها الفقير ثري في الواقع. وحاولت أن تستعيد حياتها السابقة بعد أن قطعت كل رابط يجمعها بجيرارد.

قادت سيارتها باتجاه منزلها الجديد، وجيرارد يشغل تفكيرها. حضّرت العشاء وجيرارد لا يفارق بالها، وبقي يحتلّ أفكارها حتى وهي تتبادل الأحاديث مع خالها على المائدة.

وبقي الأمر على حاله، عندما عاد خالها إلى ورشته بعد تناول العشاء. هل استلم جيرارد رسالتها؟ لا شك أنّه استلمها. لكن إذا ما عمل حتى ساعة متأخرة أو ذهب في رحلة عمل، فلن يستلمها.. فجأة قطع رنين الهاتف حبل أفكارها.

نظرت إلى الهاتف، وفكرت في أن تستدعي خالها. لكن، لعل المتصل شخص أخطأ في طلب الرقم الذي يريده، فلم إزعاجه؟ توجهت نحو الهاتف ورفعت السماعة.

ـ آلو.

وأتاها من الطرف الآخر صوت كاد يصمّ أذنها.

صاح جيرارد بها: «من أين جئت بالمال؟».

أبعدت ميرين السماعة عن أذنها وقد انهارت قواها. كانت تتوق لسماع هذا الصوت، إنما ليس لسماع هذه الكلمات.

ردت على صراخه بالمثل: «ليس عن طريق بيع جسدي».

وسرعان ما أقفلت سماعة الهاتف.

من يظن نفسه؟ اكتشفت ميرين أنها ترتجف. يا إلهي، أليس لذلك نهاية؟ ما الذي دفعه إلى الاتصال؟ والاتصال بها هنا! لا شك أنه اتصل بمنزلها السابق فأخبروه أنها تقيم عند خالها. لكن ما الفرق؟

بدا لها أن كل ما يحيط بها لم يعد مهماً. وأصبح جلياً أن جيرارد مونتغمري يشعر بالضيق والاستياء لأنه فقد غطاء «الصديقة الدائمة» الذي كان يواجه أمه به. لكن الأمر لم يعد يهمها أو يعنيها.

وأدركت بعد حين، بعد أن انتهت من الغسيل والتنظيف، أنّ ما تفكر فيه هراء. فهي تهتم لأمره، وقد فات أوان التمني فليتها أجابته بطريقة مختلفة، أو تبادلت حديثاً ودياً معه. لقد فقدت الأمل الآن، إذ أثار جيرارد أعصابها منذ البداية. وتمنّت أن يكرر اتصاله، لكنه لن يفعل. وهي تعرف ذلك على وجه اليقين.

ولم يتصل. إنما، وفيما كان خالها منكباً على العمل في ورشته، رن جرس الباب الأمامي بإلحاح.

وعندما اتجهت ميرين نحو الباب، وجدت الفرصة المناسبة لتكون أكثر لطفاً مع الرجل الذي أحبته. وفتحت الباب لترى جيرارد مونتغمري يقف أمامها.

شعرت على الفور بالحمرة تزحف إلى وجهها، وفاضت مشاعرها نحوه. لكن نظرته العدائية ووجهه الخالي من الابتسام، منعاها من التصرف بلطف ورقة معه. لعلها متيّمة بحب هذا الجلف، لكنه يبدو مستعداً للإمساك بخناقها. لهذا بدأت الهجوم أولاً.

بادرته بعدائية: «هل أتيت كي تهينني وجهاً لوجه؟».

كرر مطالبته: «من أين أتيت بالمال؟».

ـ هذا ليس من شأنك!

صرخ بها: «سأجعله من شأني!».

طالبته بدورها: «وكيف ستفعل ذلك؟».

ماذا يستطيع أن يفعل برأيه، ليجعل الأمر من شأنه؟

لاحظت أن جيرارد تردد، على غير عادته، لكنها لا زالت غير مستعدة للتراجع قيد أنملة.

وأجابها أخيراً: «صرت، أنا.. أحبك».

وخارت قواها..

لكنها كأمها تعتز بنفسها وتحافظ على كرامتها، فلم تشأ أن تتعرض للرفض ثانية.

- هل يحلّ هذا الوضع؟ ويجعل الأمور رائعة!

أحجمت عن الرد، وبقيت في مكانها عندما تجاوزها ودخل.

- تفضل بالدخول، ما الذي يمنعك؟

بادرته بالهجوم: «أنا لا أتذكر أنني دعوتك..».

وشهقت عندما أغلق جيرارد الباب واستدار لمواجهتها.

قال لها بفظاظة، فيما راح قلبها يخفق بشدة من نظراته الهادئة والمصممة: «لقد تخطينا أنا وأنت اللياقات الاجتماعية».

ثم أضاف بلهجة آمرة: «سوف نتكلم».

وابتعد عنها متجهاً نحو غرفة الجلوس، تاركاً ميرين تتعثر بخطاها.

***

٨ ـ دنياي.. أنت

لم يكن أمام ميرين حلّ آخر سوى اللحاق بجيرارد إلى غرفة الجلوس. وفي حين راح قلبها يتخبط بشدة بين ضلوعها لرؤية جيرارد ولقربه منها، أدركت أن عليها معارضة أيّ موضوع يعتقد أن عليهما مناقشته.

كان طويل القامة، فبدا وكأنه يملأ غرفة الجلوس حين التفت ليواجهها. أرادت أن تبتلع ريقها عندما أحست بغصة المشاعر لكنها لم تفعل. وافتتحت المبارزة الكلامية: «لن أدعوك للجلوس، لأن الأمر يتطلب وقتاً طويلاً».

حافظ جيرارد على رباطة جأشه، لكن نظراته لم تكن ودودة البتة. سألها باقتضاب: «هل لجأت إلى المرابين؟».

فردت عليه بحدة: «لم أفكر في ذلك قطّ، بيد أنني سأدفع الفائدة لهم أسرع مما فعلت معك».

صرخ بها: «ومتى طلبت منك فائدة؟».

كادت تضربه قبل أن تجيب: «أنت تعرف جيداً ما أعنيه!».

فصاح بها ثانية: «وأنت تعرفين جيداً أن الجنس لم يكن يوماً جزءاً من اتفاقنا».

أحست ميرين بالحمرة تغزو وجهها. لقد طرح الملف الوحيد الذي تفضّل ألاّ يؤتى على ذكره! فردّت عليه وهي تنتفض: «حسناً، لقد سددت لك الدين الآن. فقد انتهى الأمر».

وأضافت وقد رقت لهجتها بعض الشيء: «لقد شكرتك كثيراً.. وأنا كنت، وما زلت ممتنة لك، كما قلت لك في رسالتي، لكن..».

استشهد بما جاء في رسالتها وهو يتأمل عينيها: «جاء أيضاً في رسالتك أنّ هذا الشيك ينهي كل المسائل العالقة بيننا. حسناً، لقد جئت إلى هنا يا ميرين شبرد، لأخبرك أن الأمور لم تنته بعد».

رمشت بعينيها وقالت: «هل تريد الفائدة؟ سوف أعطيك الفائدة».

ضاقت عيناه وصاح بها: «لقد اكتفيت من إهاناتك القاسية!».

تجاهل تعليقها وأضاف: «الأمور بيننا أبعد ما تكون عن النهاية، يا ميرين. أنت تعرفين..».

قاطعته: «أنت غاضب لأنني أفسدت عليك خططك للحفاظ على حياة هادئة. أنت غاضب لأنني قررت ألاّ أستمرّ في الادعاء بأنني صديقتك».

- لا علاقة لهذا بما أريد مناقشته.

- على العكس. ظننت أنك حصلت على الغطاء الذي يحميك من إلحاح أمك، حتى عودة شقيقك من الخارج. أنت...

- لو صحّ هذا، لكان مثيراً للضحك.

حدقت فيه ميرين وردّت عليه بخجل: «أيّ قسم منه؟».

حدّق فيها بدوره، وكأن حدة غضبه قد خفّت. وبدا أقل عدائية من قبل، حين أقرّ لها: «صحيح أن بيار سيبقى سنة في الخارج، وصحيح أن أمي وفيدا سلطتا اهتمامهما عليّ وعلى وضعي كعازب منذ سافر بيار. لكن ثقي أن بإمكاني حلّ المسألة بنفسي».

فغرت ميرين فمها، واقترحت عليه أن يجلس إذ شعرت بأن رجليها ترتعشان وتعجزان عن حملها.

انتظر جيرارد حتى جلست على الكرسي الهزاز، ليجلس على أريكة صغيرة. وقالت له: «أنت تحاول أن تبيّن لي، وبعد أن تحمّلت الإقامة معك على مضض لأكثر من عطلة أسبوعية، أن الأمر لم يكن ضرورياً؟ وأنني..؟».

تعمدت قول ما قالته، لتوحي له بأن هذه المرحلة كانت شاقة بالنسبة إليها.

رد عليها بغموض: «لا يمكنني أن أقول ما إذا كان ذلك غير ضروري».

كانت بغنى عن الأحاجي، لأنها تجد صعوبة في إبقاء ذهنها صافياً.

تابع جيرارد كلامه موضحاً: «قدرت أن ذلك ضروري جداً، نظراً لوجهة نظرك حيال المسألة».

- هذا لطف شديد منك!

حاولت أن تسخر منه، لكن محاولتها كانت بائسة.

- أدركت عندما جئت لمقابلتي في اليوم التالي، بعد أن أعطيتك الألفي جنيه، أنك تتسمين بالصدق والكبرياء. ولذلك، أزعجك أن تأخذي النقود مني، وكنت ستشعرين بالراحة إذا ما وجدت وسيلة لتكسبي هذا المبلغ.

آه! كم تحبه. وخشيت أن يظهر عليها ذلك، فردّت بحدة: «طلبت مني أن أحضر لمقابلتك في اليوم التالي!».

- لكنني لم أتوقع أن أراك ثانية، لا أنت ولا النقود.

اعترتها الدهشة، وخيّل لها أن دهشتها بدت جلية، لأنه ابتسم فجأة. شعرت بأنها تترنح، مما اضطرها للتركيز بشدة.

- وهكذا فكّرت في وظيفة «الصديقة المزيفة؟».

- ما كان عليّ أن أفعل. لكنك جئت إلى منزلي وكنت ترغبين في الحصول على عمل، ووصلت أمي بحشريتها ونظراتها الثاقبة. وكنت بشّرتها بأني أقابل امرأة مميزة، فلم يتطلب الأمر مني سوى ثوانٍ لأرى كيف يمكنني استغلال الموقف لمصلحتي.

- وفي الوقت نفسه، وفّرت لي وسيلة لأسدد الدين. يا له من عمل لطيف!

ثم استنتجت ميرين بسرعة: «ومن فوائد هذه الصفقة، أنك لا تسيء

إلى أمك، عندما ترفض أن تشارك في النشاطات الاجتماعية التي تحضرها».

- شيء من هذا القبيل. لكن يجب أن أعترف أن المسألة تعدّت ما خططت له، وجرّتني إلى أمور لم أحسب لها حساباً.

بعدما أطلعها على حجته حيال منحها هذه «الوظيفة»، بدا وكأن عقل ميرين قد توقف عن العمل، فلمّحت له قائلة: «إن عقلي غارق في سبات عميق. إنما كان من الطبيعي إذاً، أن تظهر عدم الاكتراث».

نظر جيرارد إليها مباشرة. وذعرت حين خيّل لها أنها تكلمت بسرعة وعفوية. ولم يدع الأمر يمرّ بسلام، بل سألها بجد بعد بضع لحظات من التأمل: «لماذا تحاربينني يا ميرين؟».

ابتلعت ريقها واضطربت. هل كشفت عن مكنونات نفسها؟ على أي حال، كانت نظراته إليها معذّبة، عندما تابع: «إن كل ما فعلته هو أنني ابتعدت عنك رافضاً. ألهذا السبب أنت ثائرة..».

ردت عليه بقساوة، مستخدمة الكلمات التي قالها لها حينذاك: «لا تكن سخيفاً».

هش وجهه بابتسامة تمنت لو تفهم مغزاها، لكنها سرّت عندما قرر ألاّ يتابع الخوض في هذا الموضوع. وعاد إلى الموضوع الذي كانا يناقشانه في البدء. قال: «خلافاً لكل ما قلته أو لمّحت إليه، أعدك يا ميرين بأن تصبح الأكاذيب وأنصاف الحقائق بيننا من الماضي. أنا قادر على التصدي لمحاولات أمي لدفعي إلى الاستقرار».

- هل تلمح إلى الفتيات اللواتي عرفتك أمك بهن..؟

- تماماً، وليس لدي أيّ مشكلة في ذلك.

تسمرت عيناه على عينيها وأبت أن تفلتاها عندما أضاف: «لقد بدأت مشاكلي يا ميرين يوم تعرفت عليك».

لم تفهم ما عناه بكلامه هذا، لكن قلبها أساء السلوك وسرت الرعشة في داخلها، كما أن عقلها غرق في سبات عميق ولم يعد يساعدها على

الاستيعاب.

قالت: «ليس من المنطق أن تحمّلني مسؤولية خطأ أي شخص آخر».

ارتاعت ميرين حين انتقل جيرارد ليجلس على طرف الأريكة وأصبح بالتالي على مقربة منها. ومد يده وأمسك بيدها. وفيما تأثرت حواسها كلها بهذه اللمسة، وخارت قواها، قال لها: «أتحافظين على تماسك أسرتك مثلما فعلت، وتتكلمين عمن يتحمل المسؤولية».

حدقت ميرين فيه، ولم تعرف كيف أمسك بيدها الأخرى وطلب منها أن تجلس قربه. وعندما لم تنصَع له، أوقفها على قدميها ومال عليها وعانقها برقة. ارتجفت ركبتاها، لهذا سرّت عندما عادت إلى الجلوس. إلاّ أنها وجدت نفسها تجلس على الأريكة الصغيرة، إلى جانب جيرارد، فثارت حواسها كلها واضطربت!

سألته لأنها شعرت بالحاجة إلى قول شيء ما: «هل ترغب في فنجان قهوة؟».

ابتسم جيرارد برقة وهز رأسه رافضاً، ثم قال لها: «ما أريده يا عزيزتي هو التحدث إليك».

وجعلتها كلمة «عزيزتي» ترتعش من رأسها حتى أخمص قدميها.

غمغمت: «آه! نعم».

وتخلّت هذه المرة عن عدم المبالاة المصطنعة، فهو أذكى منها.

أضافت: «لقد ذكرت..».

قطعت كلامها وهي تجهد كي تتذكر ما كان يقوله قبل أن يفقدها ذاك العناق اللطيف والناعم صوابها. قالت متلعثمة: «أن.. أن مشاكلك بدأت..».

أكمل جيرارد عنها: «يوم قابلتك. وسوف أندم طوال حياتي لأنني سخرت منك في البدء، ولم أصدّق أنك تعرضت للسلب، ذلك اليوم».

تذكرت كيف عاملها في ذلك اليوم وبدأت تستجمع قواها: «لقد تصرفت بحقارة.. وما كانت إلاّ البداية».

ـ ما كنت لأنكر ذلك. إنما، لم يكن حينها قد مضى شهر على وقوعنا في هذا الفخ. فقد أتى بيار بضحية أخرى إلى البيت، ما إن عوّضنا عليها خسارتها المادية، حتى حاولت الهروب حاملة معها بعض التحف القيمة، أي «ما خف وزنه وغلا ثمنه».

حدّقت ميرين فيه وقد تملّكها الاضطراب لسماعها ذلك: «لا عجب في أنك كنت حذراً معي!».

ـ ليس لوقت طويل، فلقد أثر بي وقارك واعتزازك بنفسك عندما قلت إنك لن تأخذي قرشاً واحداً مني. وبعد يومين فقط، وفي حين لم أكن أعرف أي أنثى مميزة أنتِ، ادّعيت أمام أمي عكس ذلك. وأخذت أدرك تدريجياً أنني وجدت الأنثى المميزة.

جف حلقها. هل يلمّح جيرارد إلى أنها تلك المرأة المميزة؟ عجزت عن طرح هذا السؤال. ولا يمكنها أن تتحمل المهانة والإذلال إذا ما ضحك ساخراً منها. ثم تذكرت إيزادورا توماس الرائعة الجمال، فأدركت ميرين أنها تتصرف بسخافة.

قالت: «نعم، فهمت».

وتمنّت أن توسّع المسافة التي تفصلهما على الأريكة الضيقة. لكنها كانت مجبرة على البقاء حيث هي وإلاّ اكتشف هذا الرجل الحاد الذكاء، الذي يجلس إلى جانبها الارتباك الذي يعتريها. أشارت ميرين إلى أنها أعادت له ماله، علّه يرحل. ومع ذلك، ورغم الغيرة التي شعرت بها حين تذكرت إيزداورا توماس، تمنت أن يبقى معها.

لم تفُتْهُ نبرة صوتها الباردة، ولم يكن منبسط الأسارير عندما أفادها وهو ينظر إليها بصراحة: «لم تكن النقود القضية يوماً يا ميرين».

ـ أهذا صحيح؟

أخذ نفساً عميقاً وكأنه يحتاج إلى تهدئة روعه. ووجدت نفسها تحدق فيه عندما أعلمها بهدوء:

ـ لم أعطِ ذلك الأمر أيّ اهتمام، ولم تشغل النقود بالي. ما همّني هو

أنكِ أصبحت ذات أهمية بالنسبة لي.

جحظت عيناها، ثم قالت وهي تستغرب الصوت الذي صدر عنها:

ـ أنا.. كنت؟

اعترف لها بحذر: «لقد شغلت تفكيري، حتى عندما كنت أخدع نفسي وأقول إن الاتفاقية التي عقدناها هي التي تدفعني إلى رؤيتك، وإلى الحضور إلى بيتك كي أدعوك لتناول العشاء معي. في حين كنت أرغب بالخروج معك».

ـ أحقاً ما تقول؟

ـ نعم، وكان لديك الشجاعة الكافية لتقولي لي إنك ارتبطت بموعد سابق. لكن ماذا كنت أتوقع؟ وأنت امرأة رائعة يا ميرين.

ـ أوه، يا جيرارد، كف عن ذلك. ستجعلني أجثو على ركبتي!

أرادت أن تفكر في نكتة ما، لكن عقلها خانها. وبدلاً من ذلك، استجمعت شجاعتها وسألته فيما راح قلبها يخفق بشدة: «ما.. ما الذي تحاول أن تقوله بالضبط، يا جيرارد؟».

نظر إليها وأحست بنسيم عليل ينعش كيانها عندما مال نحوها، وعانقها برقة، ثم أجابها بهدوء: «ما أقوله يا ميرين، إنه كلما ازدادت معرفتي بك، كلما أدركت أنك امرأة رائعة. ما أقوله هو أنك قادرة على إضحاكي وعلى إسعادي أكثر من أيّ شخص آخر عرفته في حياتي. لقد عرّفتك إلى عائلتي، وفي حين كنت أعتقد أنني سأقع في ورطة، اكتشفت أنني استمتعت بصحبتك، وبالعلاقة التي من المفترض أن تكون بيننا».

ابتسمت ملامح وجهه بالوقار عندما تابع كلامه: «لقد سألت في إحدى المرات، إذا كنت أرغب بمتابعة الادعاء بأننا على علاقة ببعضنا البعض. حينها أدركت أنني لا أمثّل الدور وحسب، بل بدأت أهتم لأمرك».

انقطعت أنفاسها، آه، يا للسماء! لا زالت غير متأكدة مما تسمعه. لكنها واثقة من أنها توشك على كشف مكنونات نفسها، وهذا ما يجب ألا تفعله، أبداً! شعرت بأن فمها قد جفّ.

تذكّرت حياتها عندما كان قلبها حراً تفعل ما تشاء دون هموم الحب. ورغم صوتها الأجش، استطاعت أن تسأله: «وأنت، قاومت هذه المشاعر، بالطبع؟».

ردّ عليها من دون أيّ تردد: «طبعاً، افترقت عنك في إحدى المرات بعد أن قلت لك كلمة «أحبك» كمسك الختام. وانطلقت في طريقي وأنا أفكر في ضرورة أن أتنبّه لحالي، إذ لم أقل هذه الكلمة لأي امرأة من قبل. ومنذ أن غادرت بريتشوود، ورأسي في دوامة. رحت أقاوم ما أصبح حالة جادّة وخطيرة».

تمتمت ميرين بغصة: «أوه».

لقد عانى جيرارد بعضاً من العذاب الذي تملكها يوم الاثنين! وماذا يعني بذكره كلمة «الحب» في سياق ما قاله؟ هل يساعدها على معرفة الجواب؟

قال جيرارد بعد أن لاحظ ارتجاف صوتها: «تبدين متأثرة مثلي تماماً».

وشعرت بالخوف من التلفّظ بكلمة واحدة قد تكشف أمرها. وراحت تراقبه بعينين ثاقبتين عندما استأنف كلامه قائلاً: «حين تركتك يوم الاثنين كان عقلي في دوامة من العواطف. فهل أخفتك؟ العواطف التي في داخلي أشعرتني بالعجز، وأنا لا أريد أن أشعر بالعجز. أمضيت ذلك اليوم بطوله من دون أن تبارحني خيالي، وقصدتني في بيتي واتهمتني بأني خططت عن سابق تصور وتصميم للإيقاع بك وإغوائك. وتلك الليلة، بعدما غادرتِ المنزل، عرفت...».

سألته بتردد: «عرفت؟».

سيخبرها.. شعرت بأن عقلها مخدر لدرجة تمنعها من استنتاج ما عرفه تلك الليلة.

نظر جيرارد إليها برزانة ثم رفع يده ومسح خدها بكفه قبل أن يجيب:

ـ عرفت تلك الليلة ما حاولت أن أخفيه عن نفسي لفترة طويلة. عرفت

أنني وقعت في حبك.

هتفت بصوت مرتعش: «أوه».

ابتسم لها جيرارد، وقال: «أنا أيضاً تفاجأت، لا بل ذهلت منذ ذاك الحين. لقد غادرت المنزل آخر مرة، وأنت تكرهينني. وأدركت أنه عليّ أن أصبر عليك حتى تهدئي. ولكن، حين عدت إلى البيت في تلك الليلة، أدركت أنه إذا لم أشأ أن أعاني من الأرق لليلة أخرى، فعليّ أن أراك لنبحث في شأننا».

شأننا.. قال شأننا! شعرت برعشة في داخلها، ومع ذلك خافت أن تنبس بكلمة ما، خشية أن تستيقظ من هذا الحلم الجميل.

ـ وماذا وجدت عندما عدت إلى البيت. رسالة تعلمينني فيها أن كل شيء انتهى بيننا؟ ما كنت لأرضى بذلك!

عانقها برقة وبدا أنه تشجّع أكثر حين لم تصدّه.

ابتسمت له ميرين التي ودّت ألاّ تستيقظ من حلمها.

ـ لا بد أنك اتصلت بمنزلي السابق.

ـ طلبت الرقم من دون أن أفكر في الأمر.

ـ وأخبرك والدي أنني أقيم عند خالي أموس؟

ـ لقد قال إن في بيت خالك غرفة إضافية. هل تحبينني؟

فاجأها سؤاله على حين غرة، فأجابته بحياء: «أنت كل دنياي».

أحاطها بذراعيه وأدناها منه، ثم قال: «أحبك يا جميلتي ميرين، ألم تلاحظي ذلك؟».

همست وهي ترتجف وتشعر بضغط ذراعيه يشتد حولها: «وأنا أحبك!».

ـ أوه يا ميرين، خيّل إليّ أنك تهتمين لأمري عندما تصرّفت بعدائية معي.

ـ وقلت لك إنك سخيف.

مال عليها وأخذ يعانقها، فرضيت بالبقاء بين ذراعيه.

وبعد لحظات، ابتعد عنها قليلاً وسألها: «متى عرفت بأنك تحبينني ؟».

خذلها صوتها، فقال: «لقد اعتراك الخجل مني ثانية. متى اكتشفت هذه العاطفة الجامحة التي تنسلل إلى القلب على حين غرة وتستولي عليه؟ متى يا حبيبتي عرفت أنك تحبينني؟».

ـ حسناً، ظهرت مؤشرات عدة منذ البداية.

ـ مثل ماذا؟

ـ لم أعتد قطُّ أن أنفعل، قبل أن أعرفك. لكنك كنت تثير اضطرابي باستمرار.

ـ و.. رغم أنني أنكرت ذلك حينذاك، شعرت بالغيرة تتملكني عندما رأيت صورتك في الصحف مع إيزداورا توماس.

بدت عليه الدهشة، ثم اعترف لها: «أتعلمين أنني خرجت مع إيزادورا توماس لصرفك عن بالي. هل كنت تغارين؟ أنت رائعة».

ـ حقاً؟ يا إلهي!

ـ كان عقلي الباطني، ينبّهني إلى أنني أصبحت في خطر. لكن الغيرة ليست حكراً عليك وحدك يا ميرين الطيبة.

ـ هل شعرت بالغيرة أيضاً؟

ـ وهل يحتاج الأمر إلى سؤال؟ لو أردت التملص من اصطحابك إلى هيلمونت، لفعلت ذلك..

ـ هل كان بإمكانك ذلك؟

ـ كنت قد علقت يا آنسة شبرد، وبطريقة ما لم أعد راضياً عن وحدتي.

ـ أكنت ترغب في صحبتي؟

ـ كوني على ثقة من ذلك. لقد أخذتك لزيارة عائلتي، ليس لمرة واحدة بل لمرتين. لكن ابن عمتي فرانكلين احتكرك في المرة الثانية.

ـ هل شعرت بالغيرة من فرانكلين؟

ـ خاصة، عندما سمحت له بمغازلتك.

لم تتمالك نفسها عن الضحك وقالت محتجة: «أنت تتحامل عليّ قليلاً».

ثم تابعت بعد أن تذكرت فجأة: «لهذا كنت فظاً معي!».

ـ سامحيني يا حبيبتي، لم أختبر الحب من قبل. وأنتِ يا عزيزتي كنت تبعثين فيّ الاضطراب. لقد مررت بغرفتك ذلك السبت كي أتأكد من أنك على ما يرام، ولكنك لم تردي.

ـ هل كنت تعرف أنني هناك؟

ـ رأيت خيط الضوء المنبعث من الغرفة قبل أن تطفئي النور. ولذلك عدت لمتابعة السهرة فيما رحت أذكر نفسي بأنك ضيفة وعليّ أن أجعل إقامتك مريحة. غير أنه..

ـ ماذا؟

ـ لكن، لما رأيت فرانكلين يقبل يدك، دون ممانعة منك.

قاطعته لاهثة: «شعرت بالغيرة مرة أخرى!».

ـ غيرة عمياء، هل تعرفين يا امرأة أنني قررت ألاّ أراك ثانية.

ـ قررت ألاّ تراني؟ متى؟

ـ في طريق عودتنا، فقد شغلت أفكاري وملكت قلبي. أسرت عائلتي بسحرك الطبيعي وأعترف أنني غرت من ابن عمتي، ولم أرتح لهذا الأمر. لكنك عوّضت ذلك بمعانقتي وأعجبني ذلك، فأدركت أنني أسير على رمال متحركة.

ـ ولهذا قررت ألاّ تراني مرة أخرى.

ـ وهذا ما دفعني أيضاً إلى البحث عنك في السبت التالي، لأنك شغلت عقلي طوال الأسبوع، ولم يعد بوسعي سوى الاستسلام والسعي لمقابلتك.

عانقته ميرين بشوق وارتياح، وكانت راضية بالبقاء بين ذراعيه لفترة طويلة. قال لها جيرارد: «أنت امرأة جميلة ورائعة يا ميرين شبرد، أتعرفين ذلك؟».

ـ أنا متأكدة من أنك على خطأ. ولكن يسعدني أن تظن ذلك.

فأجابها جيرارد برقة: «أنا لا أظن ذلك. أنا أعرف ذلك».

ـ لأني اقترضت منك المال، وكنت عازمة على تسديد الدين، قررت أن أبحث عن عمل في العطل الأسبوعية، وأن أقتصد..

ـ أوه، يا حبيبتي، لم تكوني بحاجة إلى ذلك!

ـ بالنسبة لي، بلى. على أيّ حال عندما أخبرني خالي أنه أودع عشرة آلاف جنيه في حسابي المصـ..

سألها جيرارد: «هل حصلت على النقود من خالك؟».

ـ لا تبدو مدهوشاً على الإطلاق من أنه يملك مثل هذا المبلغ.

ـ إن خالك موهوب في الهندسة، وقد رأيت أعماله. لا بد أن أحد اختراعاته قد عاد عليه بثروة.

ـ يا إلهي! كيف لم أعرف بذلك أبداً؟ لطالما ظننته فقيراً معدماً.

ـ وأنا ظننته مدمناً على الميسر، مما يبقيه فقيراً ويمنعك من اللجوء إليه وقت الشدّة.

ردت عليه ميرين: «أوه، لا. إنه رائع، وقد سألني مرات عدة إذا كنت بحاجة إلى المال. لم أكن أعرف أنه يملك ثروة ولهذا امتنعت عن إخباره عن مشاكلي المادية.. وذلك حتى يوم الاثنين الفائت وكنت غاضبة. و..

ـ هيا تعالي واغفري لي يا حبيبتي. من أصعب اللحظات التي عشتها هي حين تركتك تذهبين تلك الليلة. ولكنك ترددت، لهذا كان عليّ أن أدعك ترحلين.

ـ ولكنك طردتني؟ اعتقدت أنك ترفضني وتتخلى عني.

ـ أرفضك يا حبيبتي البريئة؟ أنا أرغب فيك بجنون. كيف استطعت أن أدعك تعبرين ذلك الباب، أمر لن أفهمه أبداً!

جلست ميرين تحدق فيه وقد توردت وجنتاها، ثم قالت: «كان ذهني مشوشاً. لم أستطع الاستسلام لمشاعري صباح الاثنين، بسبب الدين الذي يربطني بك. ومع ذلك عندما أتيت إلى منزلك مساء الاثنين، لم أعر هذه

المسألة اهتماماً. هل يربكك هذا المنطق قليلاً؟».

كشر جيرارد فلم تتمالك نفسها عن الضحك. قال: «هيا، تابعي».

ـ على أيّ حال، ظننتك نبذتني، فرحت أتساءل إذا ما فعلت ذلك عمداً لتسقيني من الكأس نفسها.

ـ ما كان عليّ أن أدعك ترحلين وأنت بتلك الحالة.

ردت عليه: «لم يكن بوسعك أن تفعل غير ذلك. عندما تمالكت نفسي، أدركت أنه يجب أن أسدد ديني بالكامل. ولم أكن أرغب في رؤية عائلتي مرة ثانية، تلك الليلة.

ـ لهذا جئت للمبيت عند خالك؟

هزت ميرين رأسها بالإيجاب. ثم شرحت له كيف لاحظ خالها، أنها كانت غاضبة من نفسها ومن عائلتها، وكيف ضعفت وأخبرته عن المال الذي أخذته منه والمبلغ الذي أخذه والدها، وكيف أنه اكتشف اهتمامها به.

وأضافت أنها لم تكن تدري أنه ثري عندما طلب منها الانتقال للإقامة معه. وأخبرته كيف أقرّ لها بعد عودته بأن المنزل الذي ترعرعت فيه ليس ملكاً لوالدها بل اشتراه هو لأمها، وأنه أودع عشرة آلاف جنيه في حسابها.

ـ فقمت على الفور بتحرير شيك لي.

ـ وأنت اتصلت بي، ورحت تصرخ كالمجنون.

ـ فأثرت غضبي أكثر بجوابك الوقح.

ـ أنا متأسفة.

وتابعا الأحاديث التي تخللتها الاعتذارات والاعترافات والعتاب، بدءاً بإعطاء والدها المال والطلب إليه بألاّ يخبرها بذلك، مروراً بإساءة فهم دوافعه، ووصولاً إلى الليلة التي أمضياها في بريتشوود.

ـ أظن أنني استنتجت، أنه لم يكن بوسعك أن تخبريني بأنك عرفت بوجودي في بريتشوود. فإذا ما فعلت ذلك، فسأعرف أنك زرتني في البيت، وأن أبي أخبرك عن مكاني.

ـ أنت فتاة ذكية.

ـ لِمَ لحقت بي رغم أنك لم تكن متأكداً من مشاعرك نحوي؟

ـ لعلي لم أكن قادراً على مواجهة حقيقة أنني مغرم بك يا حبيبتي. ولكنك شغلت أفكاري طوال الوقت. زرتك كي أراك وعندما عرفت مكانك، شعرت بأنني أريد أن أكون معك وحسب. وعندما حاولت مقاومة هذه الرغبة، أدركت أنني لم أحب فكرة بقائك وحيدة في بريتشوود.

ـ حقاً؟

ـ حبيبتي، كنت في غرفة النوم المجاورة عندما قضينا الليلة في هيلمونت وانتابك الكابوس. ولم أستطع تحمّل فكرة أن يعاودك الكابوس وأنت وحدك في بريتشوود، وأن تستيقظي فلا تجدي شخصاً يهدىء روعك.

تطاولت ميرين وعانقته ثم قالت: «أنت رجل رائع يا جيرارد ولا تجعلني أنسى ذلك».

عانقها جيرارد فتعلّقت به. لقد تحقق حلمها وما يجري الآن حقيقة.

اهتزت مشاعرها عندما مال عليها وقال: «أحبك جداً يا ميرين».

ـ وأنا أيضاً أحبك.

سألها جيرارد بإلحاح من دون أن تتغير ملامح وجهه اللطيفة: «إذاً، من هو الرجل الآخر الذي كنت تخرجين معه؟».

ـ الرجل الآخر؟ أتقصد بيرتي؟ إنه مجرد صديق قديم مخلص جداً.

ـ أحقاً؟

طمأنته ميرين وهي تحاول أن تستوعب فكرة أنه غيور: «نعم، كن على ثقة».

وتابعت تقول: «أنا وبيرتي أصدقاء منذ سنوات طويلة، كما أنني أحبك ولا أحب سواك. بيرتي مجرد صديق ليس إلاّ، وعندما سأعرّفك إليه، ستكتشف ذلك بنفسك».

نظر إليها جيرارد مطولاً ثم سألها بعد أن أخذ نفساً عميقاً: «هل

سندعوه لحضور زفافنا؟».

ـ طبعاً، إنه صديق مخـ..

اختنق صوتها عندما تنبّهت لمغزى سؤاله، واتسعت عيناها ولم تعرف إذا ما شحب وجهها.

شهقت قائلة: «لقد طلبت مني الزواج، على ما أظن!».

نظر إليها جيرارد، وقد توترت أعصابه فجأة، ثم قال: «أعرف أنني فعلت. وفي هذه اللحظة بالذات، وفيما أنا أنتظر جوابك، أشعر بالتوتر الشديد. لذلك، هلاّ فكرت في الأمر بسرعة، و..».

ردّت عليه بصوت مبحوح: «أوه يا جيرارد، وهل هذا الأمر يحتاج إلى تفكير؟».

***